شعر الهجاء في بلاد الشام
زمن الحروب الصليبية

د. شفيق محمد عبدالرحمن الرقب
جامعة مؤتة

مدخل

تكاثر شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، فقد ذكرت طائفة من الشعراء الذين اشتهروا بهذا الغرض، منهم أحمد بن منير الطرابلسيّ، وقد وُصِف بأنّه كان "خبيث اللسان، مهيناً لأعراض الرّجال، يسهل عليه الهوان، ولا يسلم أحد من هجائه"(١)، والرشيد النابلسيّ، وهو شاعر "شرس الأخلاق جافي الطباع، غليظ الجواب"(٢)، وملك النحاة الحسن بن صافي، وكان "مُرّ الشتيمة"(٣)، وابن عُنَيْن، وقد وصفه معاصروه بأنّه "سخيف اللسان، قبيح الهجاء، أُغري بهجاء الناس، وتمزيق أعراضهم.. قلّ أن سلم أحد من الرؤساء والملوك وأرباب العلم والمناصب من لسانه"(٤)، ومحمد بن يوسف السكاكينيّ من أهل حلب، كان "بذيء اللسان، هجّاء شِرّيراً يتّقى شره"(٥)، ومحمد بن يوسف التلّعفريّ "له هجاء شنيع لم يسلم منه أحد"(٦)، والأديب العرّمانيّ محمد بن عياش "إنسان سوء قلّ أن سلم أحد من شرّه ولسانه، قد جعل هجيراه الوقيعة في أعراض الناس وتلقيبهم، ولم يترك أحداً من الأماثل بحلب إلاّ وأظهر له لقباً ونبزه به"(٧)، والملك الزّاهر الأيوبيّ، كان "منطلق اللسان، مغرى بهجاء أسرته، وذوي الأقدار من الأمراء والصدور"(٨)، وسيف الدين السامريّ، كان "طويل الباع في الهجو"(٩)، وابن المسجّف العسقلانيّ، كان "أكثر شعره في الهجو"(١٠). وغير هؤلاء كثير. غير أنه ينبغي أن يشار هنا إلى أن المصادر التي ترجمت لهؤلاء الشعراء لم تورد من شعرهم الهجائيّ إلاّ

القليل، بل إنّ بعضها لم تذكر شيئاً منه، لذا فإنّ هذه الدراسة تستقي المادّة الشعريّة من دواوين الشعراء الذين أكثروا من القول في الهجاء، مثل فتيان الشاغوريّ وابن الساعاتيّ وابن عنين، بالإضافة إلى ما لم يُنشر من شعر ابن منير الطرابلسيّ[١١]، وما أوردته كتب التراجم والاختيارات من هذا الشعر لأولئك الشعراء وغيرهم.

وثمّة عوامل عدّة أدّت إلى كثرة القول في الهجاء، بعضها شخصيّ يتعلّق بالخصومات والمنافسات بين الشعراء، أو بالعلاقات الخاصّة الّتي تربط بينهم وبين أبناء مجتمعهم، وبعضها يتّصل بظروف العصر وأحواله الاجتماعيّة، ومن هذه الظروف التفاوت الشديد في مستوى المعيشة بين فئات المجتمع، إذ يستشف من بعض الأخبار أنّ عامة الشعب كانت تعاني من الفقر، وأنه كان عليها أن تعمل في المهن اليدوية في المدن، أو في الفلاحة لدى المقطعين من الأمراء وغيرهم. وكانت تفرض على هذه الفئات، على فقرها، الضرائب التي تأكل ما لديها من دراهم وزروع[١٢].

ومن هذه الظروف جور بعض الحكام والعمّال، وقد ذكرت المصادر صوراً مختلفة لهذا الظلم، وأوردت ضروباً متعدّدة من العقوبات التي كان يوقعها بعضهم على الناس، مثل الصّلب والتّسمير[١٣].

ومن هذه الظروف الفساد الإداريّ الذي دبّ في الدولة الأيوبيّة بعد وفاة صلاح الدين، وتفتّت بلاده. فقد انتهز بعض العمال فرصة الصراع بين ورثة صلاح الدين، فطفق يعسف بالرعيّة، ويستصفي الأموال منها؛ فقد كان الوزير صفيّ الدين بن شكر "إذا لاح له مال عظيم احتجنه"[١٤] وامتدّ هذا الفساد إلى عدد من القضاة الذين كانوا يظلمون الناس، ويستغلّون نفوذهم لجرّ الدنيا إليهم[١٥].

بيد أنه يجب أن يُحترس هنا من تعميم الأحكام السّابقة على العصر كلّه،

فقد قام الزنكيون والأيوبيّون بإصلاحات إداريّة واجتماعيّة واسعة، ولكنه يبقى كغيره من العصور فيه الخير والشرّ، ومن ثمّ فإن هذه الدراسة تتناول بعض المظاهر السلبية في الحياة وموقف الشعراء منها، كما تمثّلت في شعر الهجاء.

وتتناول الدراسة جانبين من هذا الهجاء، هما: الهجاء الشخصيّ، والنقد الاجتماعيّ، أمّا الهجاء السياسي فلن تعرض له الدراسة لأنّه مازج شعر المدح والجهاد، وصار محوراً رئيسياً من محاوره، بالإضافة إلى أنّ الدارسين قد تناولوا هذا الشعر وعالجوا جوانبه.

أوّلاً: الهجاء الشخصيّ

كَثُر هذا النوع من الهجاء في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة، وتعدّدت دوافعه وأطرافه، ويمكن تصنيفه إلى ما يلي:

أ- التهاجي بين الشّعراء.
ب- هجاء الأفراد.
جـ- هجاء المدن والبلدان.
د- هجاء أماكن السكنى والمرافق العامّة.

أ- التهاجي بين الشّعراء:

أشارت المصادر إلى بعض المساجلات الهجائيّة الّتي وقعت بين عدد من الشعراء الشاميّين، ومن هؤلاء الشعراء ابن منير الطرابلسيّ، وابن القيسرانيّ، فقد ذكر العماد الأصفهانيّ في معرض ترجمته لابن منير أنّه "كان.... معارضاً للقيسرانيّ في زمانه، وهما كفرسي رهان، وجوادي ميدان"، ووصفهما بأنّهما "جرير العصر وفرزدقه"(١٦)، ولم يصل إلينا من هذه المهاجاة إلاّ القليل، ويبدو أنّ العامل المذهبيّ كان له دور فيها، فقد "كان القيسرانيّ سنيّاً متورّعاً، وابن منير مغالياً

متشيّعاً"[١٧]؛ لذا فعندما بلغ ابنَ القيسرانيّ أنّ ابنَ منير هجاه كتب إليه[١٨]:

ابـــنَ منيـــر هجـــوت منـــي حَبـــراً أفـــادَ الـــورى صـــوابَهْ
ولـــم تُضـــيّق بـــذاك صـــدري فـــإنّ لـــي أســـوةَ الصـــحابَهْ

ويبدو أنّ ابن منير كان سليط اللسان في هجائه لابن القيسرانيّ، فقد نال في القصيدة الّتي أرسلها إلى ابن المستوفي يشكو له فيها ما فعله الحشريّة[١٩] في داره – نال من كرامة الشّاعر، واتّهمه في عرضه وشرفه، وذلك إذ يقول[٢٠]:

أترانـــي أكَلـــت جَـــذْرَ عيـــالي مِثـــلَ مـــا كـــان يَفعَـــلُ القيســـراني
أم كنفـت الفلـوس فـي خالـد ابنـي عـــامَ قـــادتْ عليـــه أمُّ ســـنانِ

وينتهز ابن منير دخول ابن القيسرانيّ دمشق، وقد صادف ذلك اندلاع حريق هائل في المدينة، ودخول أسراب من الجراد أتت على بساتينها وزروعها، وامتداد الأيدي بالسلب والنّهب، فيسخر من الشّاعر سخرية مريرة، إذ جعله رمزاً للشؤم وسوء الطّالع، مستعيراً له شخصيّة (طويس) الّتي يضرب بها المثل في التطيّر، وذلك إذ يقول[٢١]:

يـا طـوَيسَ الشـؤم هـذي الحركـهْ ألحَقَـــت جلّـــقَ بالمؤتفكـــهْ
جئتَهـــا تُـــذكِرها عهـــداً مضـــى مـــن تـــوالي الفـــتن المشـــتبكهْ
يـــا رســـولَ القـــدرِ الحـــتَمِ الـــى كـــلّ مـــن ســـدّ عليهـــا مســـلكهْ
لـــك رِجـــل قُطِعَـــت لـــو جُمِعَـــت تحـــت كيـــوان لهـــدّت فَلَكـــهْ
شـــؤمها أســـرى مـــن الســـمّ فمـــا دبّ للملســـوع إلاّ أهلكـــهْ

ويصوّر ابنُ منير ابنَ القيسراني وقد تحاماه النّاس، وأخذوا يطردونه من كلّ مكان يحلّ فيه، فراح يتنقل من بلد إلى بلد حاملاً معه الويلات والمصائب:

شـــرّدته طلعـــة إنْ صـــبّحت أرضَ قـــوم غبقتهـــا الدكدكـــهْ
لـــم يمـــل وجهـــاً إلـــى مـــال ثـــرٍ قـــطّ إلاّ تركتـــه تركـــهْ
لا، ولا طـــرّ لهـــا شـــدق علـــى مـــأمن إلاّ وأمســـى معركـــهْ

وتشفّ القصيدة عن الكراهية الشديدة التي يحملها ابن منير لابن القيسرانيّ، لذا راح يدعو أولي الأمر في دمشق إلى دفع النّحس والخراب عن المدينة بطرد ابن القيسرانيّ منها:

يـا مجيـر الـدّين مـن دلّ علـى ربعـك المـأهولِ هـذي الهلكـهْ؟!
مـن رمـى مغنـاك، لا ريـع، بمـن كـلّ منجـاة نحاهـا مهلكـهْ؟!
أي دار أمّهـــا مـــا غمّهـــا أيّ ســـتر ضـــمّه مـــا هتكـــه؟!

وتمضي القصيدة على هذا النحو من الإلحاح على استدعاء المعاني الّتي تصور شؤم ابن القيسراني وسوء طالعه، وكأنّ الشاعر بهذا يريد أن يحث النّاس على نبذه، وعدم الاتصال به، أو التعامل معه.

ولم يقصر ابن منير هجاءه على ابن القيسرانيّ من الشعراء، وإنّما هجا شعراء آخرين وهجوه، فقد كتب أبو نزار الحسن بن صافي المعروف بـ "ملك النحاة" إلى أحد القضاة وتصنّع في الكلام باستعمال لفظة (العاصويّ) التي استغربها ابن منير، فقال هذه الأبيات ساخراً من أبي نزار وعلمه، ومستهجناً هذا القياس الشاذّ[٢٢]:

أيـا ملـك النّحـو والحـاء مـن تهجّيـه مـن تحـت قـد أعجموهـا
أتانـا قياسـك هـذا الّـذي يعجّـم أشـياء قـد أعربوهـا
ولمّـا تصـنّعت فـي "العاصـويّ" غـدا وجـه جهلـك فيـه وجوهـا

وقـــالوا قفـــا الشـــيخ إنّ الملـــو ك إذا دخلـــوا قريـــة أفســـدوها

فأثارت هذه الأبيات حفيظة أبي نزار، فردّ عليها بأبيات اتّهم فيها ابن منير بأنّه يغير على أشعار الآخرين ويدّعيها لنفسه، ووصفه بأنّه رجل يستحق التأديب، وأخذ عليه إسرافه في هجاء النّاس وذمّهم[٢٣]:

أيـــا ابـــن منيـــر حســـبت الهجـــا ء رتبـــة فخـــر فبالغـــت فيهـــا
جمعـــت قـــوافي مـــن ذا وذا وأفســـدت أشـــياء قـــد أصـــلحوها
فقـــالوا: قفـــا الشـــيخ إن الملـــو ك إذا أخطـــأت ســـوقة أدّبوهـــا

ومـن الشـعراء الـذين كـانوا يتبـادلون الهجـاء مـع معاصـريهم أبـو الحكـم الأندلسي، فقد وصفه ابن أبي أصيبعة قائلاً: "وكان أبو الحكم يهاجي جماعة من الشعراء الذين كانوا في وقته ويهاجونه"[٢٤]. ومن هؤلاء الشعراء الذين هجوا أبا الحكم العرقلة الكلبيّ، وقد استمدّ العرقلة معاني هجائه من مهنة الطب الّتي كان يعمل فيها أبو الحكم، فصوّره طبيباً جاهلاً يجلب الحتف إلى كلّ من يعالجه، على شاكلة قوله يدعو اللّه أن يريح النّاسَ منه، لأنّه طبيب شؤم لا يزور أحداً صباحاً، حتّى يكتب له قصيدة يرثيه فيها مساء[٢٥]:

لنـــا طبيـــب شـــاعر أشـــتَر أراحنـــا مـــن شخصِـــهِ اللـــه
مـا عـادَ فـي صـبحه يومـاً فتـى إلاّ وفـــي باقيـــهِ رَثّـــاه

وإمعاناً في السخرية من أبي الحكم يستعير العرقَلة الكلبيّ طريقته في الهجاء، فيهجوه على سبيل المرثية (وهي طريقة اشتهر بها أبو الحكم كما سيتّضح بعد)، كما في قوله يتصنّع أساليب الرّثاء تهكّماً واستهزاء، لينتقل إلى الدّعاء على (المهجوّ المرثيّ)، لأنّه كان ضعيف العقيدة رقيق الدّين[٢٦]:

يـا عـين سـحّي بـدمع سـاكب ودمِ ... علـى الحكيم الـذي يكنـى أبـا الحكمِ
قـد كـان لا رحـمَ الـرحمن شـيبته ... ولا سـقى قبـرَه مـن صـيّب الـدّيم
"شيخاً يـرى الصـلوات الخمـس نافلـة ... ويسـتحلّ دم الحجـاج فـي الحَـرَم"

وهذه المراثي الهجائيّة ممّا اشتهر به أبو الحكم الأندلسيّ نفسه، ولعلّها تدلّ على سخرية أبي الحكم من المصير الإنسانيّ، بالإضافة إلى السخرية من المهجوّ نفسه، وممّا زاد هذه السخرية حدّة أنها كانت تصدر عن شخص وصفه معاصروه بأنّه كان "محبّاً للهو والخلاعة...محبّاً للشّراب مدمناً له"[٢٧]. وممّن نحا أبو الحكم في هجائهم هذا النحو ابن منير الطرابلسيّ، وابن القيسرانيّ، والأديب نصير الحلبيّ، والطبيب المفشكل اليهوديّ. فها هو ذا يندب نصيرا الحلبيّ – وكان قد اشتغل بالكتابة والشعر والطب والنجوم– ويصوّره وقد وضِعَ في القبر فيَضجّ الأموات منه، ويمعنون في الهرب من قبورهم لوضاعة هذا الزّائر وخبثه ونتن رائحته[٢٨]:

يـا هـذه قـومي انـدبي ... مـات نصـير الحلبـي
يرحمـه اللـه لقـد ... كـان طويـلَ الـذّنبِ
قـد ضـجّت الأمـوات مـن ... نكهتِـه فـي التّـربِ
وودّهـم لـو عوّضـوا ... منـه بكلـب أجـرَبِ
والقـوم بـين صـارخ ... وممعـن فـي الهـربِ
ومنكـر يقـول ذا ... أوضـع ميـت مـرّ بـي
مـا ضـمّ بطـن الأرضِ بَيـ ... ـنَ شـرقها والمغـربِ
أخبـث منـهِ طينـة ... فـي عجمهـا والعَـربِ
وقولـه لمنكـر ... أسـرفت يـا معـذّبي
أمـا علمـتَ أننـي ... شـيخ لأهـل الأدب

والنحـــو والحكمـــة والمنطـــــــــــق والتطبّـــــــــــبِ

وإذا كان أبو الحكم قد رثى في الأبيات السابقة شخصاً لم يَمُتْ هجاءً له وسخريةً منه، فإنّه هجا في الأبيات التالية ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي بعد أن ماتا، وهي أبيات تشفّ عن رغبة أبي الحكم في السخرية والهزل، وتظهر قدرته على التفنّن في إخراج الصور التي تستثير الضّحك: (٢٩)

ثـمّ عهـدي بـه وقَـد أنزلـوه القبـــــر بـــين منكـــر ونكيـــرِ
ثـمّ قـالا لـه ألـم تـك فـي التنجيـــــم بـــين إفـــك وزورِ
ثـمّ أسـرفَت بعـد ذلـك فـي قَـو لـــك بـــين المنظـــومِ والمنثـــورِ
تُفحش الهجوَ لـيس تُبقـي علـى شيـــخ ضـــنين بعرضِـــهِ مســـتورِ
فألحّـا عليـه صـفعاً ولـم ينفعـــه عـذر، ومـا لـه مـن نصـيرِ
ثـم لـم يكتـرث بـذلك لـولا مـا رأى مـن شـماتةِ ابـنِ منيـرِ
عنـدما جـاءه يقهقـه ضـحكاً وينـادي هـذا مـن التّعثيـرِ

ويجادل ابن منير ابن القيسراني، وتحتدم المجادلة بينهما، وترتفع أصواتهما، ثم يتعاركان في القبر. ولا ريب أنّ هذا يذكرنا برسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي، وما فيها من خصومات بين الشعراء في الدار الآخرة، ولعل أبا الحكم الأندلسيّ قد تأثر بذلك.

ولم يشتهر في الهجاء شاعر شاميّ، زمن الحروب الصليبية، كما اشتهر ابن عنين، فقد أكثر من القول في هذا الموضوع، واتّسعت دائرة مهجوّيه من الشعراء وغير الشّعراء وفي ذلك يقول أبو العباس الدنيسيريّ، ويذكر أخاً لابن عنين كان قاطع طريق(٣٠):

أصـــاب النـــاس مـــن ولـــدَيْ عنـــينِ شِـــدّة وشـــقا

قـــد اجتمعـــا علـــى ضـــرٍّ عظـــيم الخطـــب واتّفقـــا
كأنهمـــــا، عـــــدمتهما، علـــى الإفســـاد قـــد خُلقـــا
فـــذا الأعـــراض يقطعهـــا وهـــذا يقطـــع الطرقـــا

ومن الشعراء الذين أكثر ابنُ عنين في هجائهم الرّشيد النابلسيّ، وجُلّ هجائه له كان فاحشاً، ومن أقلّه فحشاً البيتان التاليان اللذان يقرنه فيهما بالكلب خسة ووضاعة:(٣١)

شـكا شـعري إلـيّ وقـال تهجـو بمثلـي عـرضَ ذا الكلـب اللئـيمِ
فقلـت لـه تسـلّ، فـربّ نجـم هـوى فـي إثـر شـيطانٍ رجـيمِ

ويبدو أنّ سلاطة لسان الرشيد النابلسيّ قد ألّبت ابن عنين وغيره من الشعراء عليه؛ فهجوه لعلّهم يسكتونه، ومن هؤلاء القاسم الواسطيّ الّذي ألحّ في هجائه على تصوير رداءة شعر الرّشيد وفساده، حتّى إنّه ألّف رسالة فيما أخذ عليه في قصيدة نظمها في الإمام النّاصر(٣٢). وقد كان الرّشيد النابلسي أبخر، فاستغلّ الواسطيّ هذه الصفة لتوليد المعاني الّتي تصف رداءة شعره، كما في قوله جاعلاً رائحة فمه مسبّبة عن ذلك الشعر الرديء:(٣٣)

يـــا مَـــن تأمّـــل مدلويـــ ـــهِ وشـــكّ فيمـــا يُســـقمهْ
انظـــر إلـــى بخـــر بفيـــ ـــهِ ومـــا أظنّـــك تفهمـــهْ
لا تحســـبنّ بأنّـــه نَفَـــس يغيّـــره فَمُـــهْ
لكنمّـــا أنفاسُـــه نَتَنـــتْ بِشِـــعْرٍ ينظمـــهْ

ب- هجاء الأفراد:

شمل هذا الهجاء شخصيات كثيرة في المجتمع، وقد صوّر الشّعراء فيه

بعض النماذج البشريّة الّتي تخرج في سلوكها عن المثل الأعلى للحياة الخلقيّة والنفسيّة القويمة. ويتّصل قسم كبير من هذا الهجاء بالحاجة المادية للشاعر، أو قل بتقصير المهجوّين في حقّ الشّاعر فيأخذ في رميهم بصفات تصوّر بخلهم وتقتيرهم؛ فقد قصد القاضي الرقّي علي بن مشرق شيرز، فلم يحظ عند أهلها، فقال أبياتاً نعى فيها إلى الناس الجود في تلك المدينة[٣٤]:

ألا نادِ في شرق البلادِ وغربها ... بصوت له في الخافقين أغاريدُ
قضى الخير والمعروف في أرض شيرز ... ومات بها من لؤم صاحبها الجودُ
وأعجب ما للّهِ أولاد منقِذ ... قدورهم بيض وأعراضهم سودُ

أمّا العرقلة الكلبيّ فقد مدحَ قوماً، فأعطوه شعيراً بدلاً من المال، فقال يذمّهم ويصفهم بالبهائم:[٣٥]

يقولون لِمْ أرخصت شعرك في الورى ... فقلت لهم إذ مات أهل المكارِمِ
أُجازى على الشعر الشّعير وإنّه ... كثير إذا استخلصته مِن بهائمِ

ويمدح ابن المسجّف العسقلانيّ قوماً أملاً في عطائهم، فيعود من عندهم خائباً، فيقول فيهم آسفاً على ضياع عمره في مدحهم حيناً، وفي ذمّهم حيناً آخر:[٣٦]

ولقد مدحتهمُ على جهل بهمْ ... وظَنَنْتُ فيهم للصّنيعة موضعا
ورجعت بعد الاختبارِ أذمّهم ... فأضعت في الحالين عمري أجمعا

ولم يكن البخل هو الصفة الوحيدة الّتي رمى بها الشعراء مهجوّيهم، وإنّما وصفوهم بنعوت أخرى تحطّ من مكانتهم، وألصقوا بهم، الصفات المستهجنة. فهذا ابن المسجف يذمّ جماعة من أصحابه، لأنهم جبناء لؤماء بخلاء، لا يصدقون أمل

آمل، ولا يؤدّون الصّداقة[٣٧].

يـــا رب كيـــف بلـــوتني بعصـــابة ... مـــا فـــيهم فضـــل ولا إفضـــالُ
جبنـــاء مـــا اســـتنجدتهم لِملمّـــة ... لؤمـــاء مـــا اســـترفدتهم بخّـــالُ
فَوجـــوههم عُـــوذٌ علـــى أمـــوالهم ... وأكفّهـــم مـــن دونهـــا أقفـــالُ
هـم فـي الرخـاء إذا ظفـرت بنعمـة ... آل وهـــم عنـــد الشـــدائد آلُ

ويدعو ابن السّاعاتي على دار أحد مهجوّيه بالخراب، لما كان يدور فيها من أحاديث الكذب والبهتان، ولاتصاف صاحبها بالخيانة والبخل وثقل الرّوح، وذلك إذ يقول:[٣٨]

يـا دار الأكـرم لا أَشْـوتك صـاعقةٌ ... ولا أصـابتك فـي محـل يـدُ السّـحبِ
فـربّ يـوم غـدونا فـي عراصـك أكّالـ ... ـين للسّـحتِ سـمّاعين للكـذبِ
تبّـت يـداه فكـم فـي كـلّ جارحـة ... منـه، وإن عـدّ فـرداً مـن أبـي لهـبِ
ذو النّفس مخلوقة في الثّقل من زُحل ... والكـفّ مطبوعـة مـن عقـدةِ الـذّنَبِ

وقد تناول الشعراء الصفات الجسديّة لمهجوّيهم، وحاولوا أن يصوّروا هذه الصفات تصويراً ساخراً، على نحو ما فعل المسجّف العسقلاني عندما هجا شخصاً نحيلاً أحول، معتمداً على المفارقة اللفظية الّتي تثير الضحك[٣٩]:

وغريـــر كأنّـــه غصـــن تـــين ... أحـــول المقلتـــين مـــرّ لمـــاهُ
قلـتُ: مـا الاسـم قـد أطـال عنـائي؟ ... قـال: مسـعود، قلـت: مـن لا يـراهُ

ويسخر سالم بن مؤمن المعريّ من إنسان كبير الأنف مضخما من صورته:[٤٠]

إن كنـــت مفتخـــراً بأنفـــك فهـــو قـــد بلـــغ الســـماءْ
لـــو كنـــت تصـــلح للإمـــارة لـــم يكـــن إلاّ لـــواءْ

ويؤكد العرقلة الكلبيّ الذمّ بما يشبه المدح عندما يصف أحد مهجوّيه، فيصوّره صاحب وجه كاسف، وقوام قصير منقصف، وبنان شحيح لا يقطر بأيّ خير، وذلك إذ يقول:(٤١)

لـــك وَجـــه كأنـــه الـــبَدر لكـــن إذا كُسِـــفْ
وقـــوام كأنّـــه الغصـــن لكـــن إذا قُصِـــفْ
وبنـــان كأنّـــه البحـــر لكـــن إذا نَشِـــفْ

ومن الأفراد الذين أكثر الشعراء من هجائهم الأطباء، ولعلّ هذا يعود إلى أنّ بعض الّذين اشتغلوا بالطب لم يكونوا مؤهّلين لذلك، وأنّهم لم يحسنوا معالجة مرضاهم، وربّما جلبوا الأذى لهم(٤٢). وقد رأينا طرفاً من هذا الهجاء في هجاء العرقلة لأبي الحكم الأندلسيّ. وتكاد جلّ الأشعار الّتي قيلت في هجو الأطباء تدور حول فكرة رئيسيّة واحدة هي تصوير جهلهم بأصول هذه المهنة، وعدم معرفتهم بقواعدها العلميّة والعمليّة، كقول الشاعر الطبيب سديد الدين بن رقيقة يهجو أحد الأطباء ويدعوه إلى ترك هذه المهنة لأنّه جاهل بها، مصّوراً الخطر الذي يمثّله هذا الطبيب الجاهل على أرواح النّاس، حتّى إنّه غدا أشدّ خطراً عليهم من الوباء:(٤٣)

أيـــا فـــاعلاً خَـــلِّ التطبّـــب واتّئِـــدْ فكم تقتل المرضى المساكين بالجهلِ
فتركيـــب أجســـام الأنـــامِ مؤجـــل فَلِـمْ، لا كـلاك اللـه، تعجـل بالحـلِّ
بهـرت الوبـا إذ قتلـك النـاسَ دائمـاً وذلك في الأحيان يحدث في فصلِ

وقد هجا ابنُ خروف الطبيبَ الدّخوارَ بعدد من المقطوعات حاول أن يبثّ فيها روح السخرية التهكميّة، كما في قوله يجعل الطبّ سيفاً يصول به الدّخوار على أرواح العباد:(٤٤)

طبَـــــع المهـــــذّب طبّـــــه ســـيفاً وصـــال علـــى المهـــجْ
بـــــابُ الســـــلامة لا يُـــــرى منـــــه، ولا بـــــاب الفَـــــرَجْ

ولم يُهْجَ من الأطبّاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة أحد كما هجي الطبيب موفّق الدين بن المطران، مع أنّه كان "أمير أهلِ زمانه في علم صناعة الطب وعملها"(٤٥) ولعلّ ذلك يعود إلى شخصيّة ابن المطران، فقد كان –على علمه– يغلب عليه "الزّهو بنفسه والتكبّر حتّى على الملوك"(٤٦)، لذا تناول الشعراء هذه الصفة، وعرضوها عرضاً ساخراً، على شاكلة قول ابن عنين يصّور ابن المطران يتجوّل في شوارع دمشق متكبّراً مختالاً، وقد تبعه غلامه (عمر)(٤٧):

متـــى أرى ســـيّدي الموفّـــق يختـــا ل ضـــحى فـــي عراصـــها الرّحـــبِ
يمشـــي الهـــوينى وخلفـــه عمـــر يختـــال مثـــل المهـــاة فـــي السّـــربِ
وســـــيّدي كلمّـــــا تأمّلـــــه تـــــاه وأبـــــدى غرائـــــب العجـــــبِ
تجعمـــسٌ قـــلّ مـــن ينـــاظِره فـــي النـــاس إلا تعنفـــق الرّحبـــي

وقد كان ابن المطران نصرانيّاً، فأسلم، إلاّ أنّ ابن عنين ظلّ يشكّك في هجائه له، في صحّة إسلامه، ويربطه بحبه لـ (عمر) الذي سبق ذكره، وهو غلام مسلم "في غاية جمال الصورة"(٤٨)، كما في قوله يحمد الله –ساخراً– على هداية ابن المطران، لينفذ من ذلك الحمد إلى الإقذاع في هجائه:(٤٩)

الحمـــد للـــه واجـــبِ الشّـــكر فقـــد اهتـــدى ســـيّدي أبـــو نصـــرِ
واتّبـــعَ الحـــقّ حـــين لاح لـــه فجـــر الهـــدى مـــن دجنّـــةِ الفجـــرِ

وقـــال إنّ المســـيح لـــيس بمعبـــ ـــود، وأفتـــى الصـــليب بالكســـر
مـــا ذاك إلا ســـترٌ علـــى عمـــرٍ ربَّ انتهـــاك خيـــر مـــن السّـــترِ
فقلـــت يـــا قـــوم إنّ فـــي عمـــر معـــــذرةً إن ســـــمعتمُ عـــــذري
شـــكت لـــه أختـــه لهيـــب..... .....

وقد لجّ ابن عنين في هجاء ابن المطران، فأبغضه وحرّض السلطان على نفيه،[٥٠] ويبدو هذا الهجاء في بعض صوره ضرباً من التجارب الأسلوبيّة الّتي تستهدف إظهار القدرة على الإتيان بالصور والمعاني، كما في قوله ينسب إلى العامّة زعمها أنّ ابن المطران قد تشيّع، ثمّ يعجب من هذا الزّعم لأنّ الذي دعاه إلى الإسلام هو (عمر!!)[٥١]

قـالوا الموفّـق شـيعيّ فقلـت لهـم هـذا خـلاف الّـذي للنـاس منـه ظهـرْ
وكيـف يجعـل ديـن الـرفض مذهبـه ومـا دعـاه إلـى الإسـلام غيـر عمرْ؟!

وقد هجا بعض الشعراء، في إطار الهجاء الفرديّ، أقاربهم. فقد هجا سيف الدين السّامريّ خاله وخال أبيه[٥٢]، وهجا أبو الفتح البلطيّ ابن عمّه وتبرّأ منه[٥٣]. وكان ابن روبيل الأبّار، على صلاحه ونسكه، "مغرى بهجاء زوجته، لأنّها أشارت عليه أن يمدح كبيراً فما نفع، فهجاه فصفِع، فقال لولا زوجتي لما صفِعت، ولولا تغريرها لما وَقَعت"[٥٤]. وقد أفحش ابن روبيل في هجاء هذه الزّوجة، كما في قوله يرميها بالفسق والفجور[٥٥]:

لـــي قطّـــة أنظـــف مـــن زوجتـــي و ..... أنظـــف مِـــن فيهـــا
وكـــلّ مـــا صـــوّره ربّنـــا مـــن الخنـــا مركّـــب فيهـــا

وهجا ابن عنين أباه بأبيات أشبه ما تكون بالاعتراف الذاتيّ بإحساس

الشّاعر بمركّب النقصِ من جهة هذا الأب، إذ جعله سبب معاناته في هذه الحياة، وعلّة شعوره بالنقمة على الآخرين؛ فهو الّذي جنّبه فعل الخير، وجذبه إلى رديء الأعمال؛ لأنه إنسان ضئيل القدر، وضيع الهمّة، كثير العيوب، جمّ المفاسد، أينما توجّه لا يأتي بخير، وقد ورث الشاعر ذلك كلّه، يقول:(٥٦)

وجنّبني أن أفْعَل الخيرَ والد ... ضئيل إذا ما عدّ أهل المناسبِ
بعيد عن الحسنى قريب من الخنا ... وضيع مساعي الخير، جمّ المعايبِ
إذا رمت أن أسمو صعوداً إلى العلى ... غدا عِرقه نحو الدنيّة جاذبي

وأخيراً فقد هجا بعض الشعراء أنفسهم، ولعلّ هذا الهجاء كان يصدر أحياناً عن إحساسهم بالنقص، فقد كان العرقلة الكلبيّ شيخاً دميماً أعور، فقاده إحساسه بافتقاد ميسم الجمال إلى التنّدر بنفسه، كما في قوله(٥٧):

حاجتي شقّة تَشقّ على كلّ بغيض من الورى وحسودِ
ذات لون كمثلِ عرضكَ لا عِر ... ضي، وحظي من القريب البعيدِ
فابْعَثْنها صفيقة مثل وجهي ... جلّ من صاغ جلده من حديدِ
واجْعَلَنْها طويلة مثل قرني ... ولساني، لا مثل قدّي وجيدي
كي أُرى في الشآمِ شيخاً خليعاً ... في قميص من العراقِ جديدِ

وعندما طالبَ الملك المعظّم عيسى الشاعر ابن المسجف العسقلاني بالزكاة، رفع إليه الشاعر مقطوعة نزّه فيها الملك أن يحصّل الزكاة منه، لأنّ ماله حرام، ولأنه لا يصوم ولا يصلّي(٥٨):

أيا ملكاً حوى علماً وجوداً ... وحاز لكلّ مكرمة وفضلِ
يكلّفني البهاء زكاةَ مال ... حرام كلّه من غَيرِ حلٍّ
وكيف يقوم بالزكوات مَنْ لا ... يصوم ولا يحجّ ولا يصلي

جـ- هجاء المدن والبلدان:

شاعت في الشّعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة ظاهرة هجاء المدن والبلدان، فقد هجا الشّعراء دمشق، وحلب، وبخارى، وسامّراء، ومصر، وغيرها من البلدان الشاميّة وغير الشاميّة. ولعلّ هذا الهجاء يناقض ظاهرة مدح المدن الّتي ذاعت في الشعر الشاميّ آنذاك[٥٩]. وتختلف دواعي هذا الهجاء من شاعر إلى آخر، فقد يكون الدافع مذهبياً على ما كان من هجاء ابن منير الطرابلسي لدمشق وأهلها، وذلك في سياق القصيدة التتريّة الّتي تحدّث فيها بأسلوب هزليّ عن بعض معتقدات الشيعة، إذ حمل فيها على أهل دمشق، وجرّدهم من القيم والفضائل، فوصفهم بالضّلال وضعف الدين، والطيش، إلى غير ذلك من الصفات الّتي تزري بهم، وذلك في قوله:[٦٠]

وأعَنـــــت ضـــــلاّل الشـــــآ ... مِ علـــــى الضـــــلال المشـــــتهرْ
وســـــكنت جلّـــــق واقتَدَيـــــ ... ـــــت بهـــــم وإن كـــــانوا بَقَـــــرْ
بقـــــر تـــــرى بحلـــــيمهم ... طـــــيشَ الظلـــــيم إذا نَفَـــــرْ
وهـــــواؤهم كهـــــوائهم ... وخلـــــيط مـــــائهم القَـــــذرْ
وعلـــــيمهم مســـــتَجهَل ... وأخـــــو الدّيانـــــةِ محتَقَـــــرْ
وخفـــــيفهم مســـــتَثقَل ... وثقـــــيلهم فيـــــه العبَـــــرْ
وطبـــــاعهم كجبـــــالهم ... جُبلـــــت وقـــــدّت مـــــن حَجـــــرْ

أمّا ابن عنين، وهو شاعر سنيّ، فقد اكتفى وهو يهجو حلب بالحديث عن الخلافات المذهبيّة الّتي نشبت بين أبناء المدينة، وعدّ ذلك ممّا يؤخذ عليها، بالإضافة إلى عيوب أخرى. يقول[٦١]:

لا عـادَ فـي حلـب زمـان مـرّ لـي ... مـا الصـبح فيـه مـن المسـاءِ بأمثـلِ

سـيّان فـي عرصـاتها رأد الضـحى عنـدي وديجـور الظـلام المسـبلِ
فـي معشـر لعنـوا عتيقـاً، لا سـقوا صـوب الغمـامِ، ومعشـر لعنـوا علـي
قـــوم عهـــود رجـــالهم محلولـــة أبـــداً وعهـــد نســـائهم لـــم يحلَـــلِ

وقد لا يجد شاعر أو آخر تقديراً من أهل المدينة الّتي يقيم فيها، فيهجوها، على نحو ما فعل ملك النحاة في هجائه لدمشق، مازجاً هذا الهجاء بالتذمر والتهديد، وذلك إذ يقول:(٦٢)

لأرحلـــنّ مطيتـــي عـــن بلـــدة شـــعثاء يكـــره ماؤهـــا وهواؤهـــا
ولأرمـــينّ دمشـــق غيـــر مُحجّـــف بفـــواقر التبســـت لهـــا أبناؤهـــا
ولأزجـــرنّ العـــيس عنهـــا معرضـــاً إن أقـــدرتني دولـــة ولواؤهـــا
فـإلامَ أغضـي فـي دمشـق علـى قذى والأرض نازحـــة بهـــا أرجاؤهـــا

وأكثر ابن دنينير من هجاء أهل دمشق، لأنه لم يلق منهم التقدير الّذي يعتقد أنّه يستحقّه، وكان شديد الوطأة في هذا الهجاء، على نحو ما نرى في الأبيات التالية الّتي يصفهم فيها بأنّهم مطبوعون على اللؤم والجهل والبخل وقول الزور، ومفطورون على فساد الأخلاق وانعدام الغيرة على الأعراض(٦٣):

لـم أجـد بالشّـام مـن يرجـى لـه جـــود كـــفّ لفتيـــل أو نقيـــرِ
خلقـــوا للـــؤمِ طـــرّا والخنـــى ومقـــال الـــزّور والجهـــل الغزيـــرِ
ودمشـــق جنّـــة قـــد ملِئـــت مـــن أهاليهـــا بأربـــاب الســـعيرِ
لا يجـــودون بمـــال أبـــدا بـــل يجـــودون بربّـــات الخـــدورِ
مـــا يـــرى العـــافون حظّـــاً لفـــمٍ عنـــدهم، بـــل عنـــدهم حـــظّ .....

وعدم التقدير هذا نجده واضحاً في هجاء ابن السّاعاتي لمصر، وقد بالغ

في هذا الهجاء، فشمل به نهر النيل نفسه، وذلك في قوله[٦٤]:

وَها مِصر لا يقضَى بها حَاجُ طالبٍ بغاها، ولا يُمْضَى لذي أمل حكمُ
لأبحرَ منها النّيل وهو مجاجة من البخل، لا بل أظلم القمر التمّ

ويشعر الحافظ ابن عساكر بالغربة في أثناء إقامته في نيسابور، فيذمّ المدينة أهلاً ومناخاً، قائلاً[٦٥]:

لا قدّس الله نيسابور من بلد ما فيه من صاحب يسلي ولا سكنِ
لولا الجحيم الذّي في القلب من حرق لفرقة الأهل والأحبابِ والوطنِ
لمت من شدّة البَردِ الذي ظهرت آثار شدّته في ظاهر البَدَنِ

د- هجاء أماكن السكنى والمرافق العامّة:

تناول بعض الشعراء بالهجاء أماكن سكناهم، ويرتبط هذا الهجاء بالشكوى من انعدام السكن والطمأنينة، والتذمر من الفقر والحرمان، فقد ذمّ كمال الدّين بن الأعمى دار سكناه في قصيدة أوّلها[٦٦]:

دارٌ سكنت بها أقلّ صفاتِها أن تكثر الحسرات من حشراتها

وقد أطال الشاعر في وصف الحشرات التي تستوطن هذه الدّار الّتي نزح عنها الخير وتباعد، ودنا إليها الشرّ من جميع جهاتها، وعبر عن آلامه ومعاناته الشديدة من لدغ الحشرات، وأصواتها المزعجة، والرّوائح الكريهة الّتي تصدر عنها يقول:

من بعض ما فيها البعوض، عدمته كم أعدَمَ الأجفانَ طيب سِنَاتِها
وتبيتُ تسعِدها براغيثٌ متى غنّت لها رقصت على نغماتها

وبهـا ذبـاب كالضـبابِ يسـدّ عيـ ـنَ الشمسِ، ما طربي سوى غنّاتها
وبهـا خفـافيش تطيـر نهارَهـا مـع ليلهـا، ليسـت علـى عاداتهـا
وبهـا مـن الجـرذان مـا قـد قصّـرت عنـه العتـاق الجـرذ فـي حملاتهـا
وبهـا خنـافس كالطنـافِسِ أفرشـت فـي أرضـها، وعلـت علـى جنباتهـا

ويمضـي الشـاعر فـي قصـيدته علـى هـذا النحـو مـن تصـوير الحشـرات والزواحف التي تقيم في داره، فيذكر العقارب الّتي ترتع في ساحاتها، والبوم الّتي تعكف في جنباتها، وبنات وردان الّتي يفوت العين كنه ذواتها، والنمل السليمانيّ الّتي تحطم جلده ويعاني من سطواتها، وغيرها... ويصف خلال ذلك قدمَ هذه الدار الّتي استوطنتها الجنّ، وتَصدّعَ جدرانها، وتهدّمَ سقفها، فيقول:

قـد رمّمـت مـن قبـل أن يلقـى لآ دم أمّنـا حـوّاء فـي عرفاتهـا
شـاهدت مكتوبـاً علـى أرجائهـا ورأيـت مسـطوراً علـى عتباتهـا
لا تقربـوا منهـا وخافوهـا ولا تلقـوا بأيـديكم إلـى هلكاتهـا

ويخلص الشاعر من هذا الوصف إلى الحديث عن آلامه ومعاناته من الإقامة "مفرداً" في هذه الدار الّتي وصفها بأنها "جهنم الدنيا":

كـم بـتّ فيهـا مفـرداً والعـين شـو قـاً للصّـباح تسـحّ مـن عبراتهـا
وأقـول يـا رب السـموات العلـى يـا رازقـاً للـوحشِ فـي فلواتهـا
أسـكنتني بجهـنمّ الـدّنيا ففـي أخـرايَ هَـب لـي الخلـدَ فـي جنّاتِهـا

والقصيدة بعد هذا كلّه تشفّ عن تضجّر الشّاعر من حياته، وافتقاده للملاذ الّذي يطمئنّ إليه، والصّديق الّذي يأنس به، وقد تناثرت في القصيدة بعض الصور التي تشي بذلك، فقد قرن الشّاعر، مثلاً، لدغ العقارب بإساءة الأقارب

والأصدقاء إليه، داعياً اللّه أن يحميه من ذلك:

وبهـــا عقـــارب كالأقـــارب رتّعـــا فينـــا، حمانـــا اللـــه لـــدغ حماتهـــا

وحين تحدّث الشّاعر عن الأفاعي الّتي أقامت في الدّار استعار صفات لا تكون إلاّ في بَشَر:

كيـفَ السـبيل إلـى النّجـاةِ ولا نجـا ةَ ولا حيـــاة لمـــن رأى حيّاتهـــا
السـمّ فـي نفثاتهـا، والمكـر فـي فلتاتهـا، والمـوت فـي لفتاتهـا

بل إنّ المبالغة في التّصوير قد تدلّ على أنّ الشّاعر كان يرمي إلى أبعد من المدلول الحرفيّ للصورة الّتي يرسمها للحشرة، كما في قوله يصف (الجراحات) التي يسبّبها له (القراد):

وبهـــا قـــراد لا انـــدمال لجرحهـــا لا يفعـــل المشـــراط مثـــل أداتهـــا
أبـــداً تمـــصّ دماءنـــا فكأنّهـــا حجّامـــة لبـــدت علـــى كاســـاتها

وعندما أنهى الشّاعر قصيدته سأل اللّه -تعالى- أن يجمع شمله بمن يهواه، ويجد السكينة في جواره، ويؤنس وحدته:

واجمـع بمـن أهـواه شَـمليَ عـاجلاً يـــا جـــامعَ الأرواحِ بعـــد شـــتاتِها

وكَثُر في الشّعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة هجاء الحمّامات، ولعلّ هذا يعود إلى سعة انتشارها، وافتقاد قسم منها للنّظافة وشروط السلامة العامّة. فقد دخل كمال الدين بن الأعمى نفسه حمّاماً ضَيِّقاً، شديد الحرّ، ليس فيه ماء بارد، فقال يذمّه، ويصف من يدخله، مصوراً شدّة حرارته، وإظلام نواحيه، وضيق بابه

الّذي يشبه طاقة سجن، وفظاظة القائم عليه، وسوء معاملته للنّاس[٦٧]:

إنّ حمّامنـــا الـــذي نحـــن فيـــه ... قـــد أنـــاخَ العـــذاب فيـــه وخـــيّمْ
مظلـــم الأرضِ والسّـــما والنّـــواحي ... كـــلّ عيـــب مـــن عيبـــه يـــتعلّمْ
حـــرِج بابـــه كطاقـــة ســـجن ... شـــهد اللـــه مَـــن يجـــز فيـــه ينـــدمْ
ولـــه مالـــك غـــدا خـــازِنَ النّـــا ... رِ، بلـــى مالـــك أرقّ وأرحـــمْ
كلّمـــا قلـــت قـــد أطلـــت عـــذابي ... قـــال لـــي اخســـأ فيـــه ولا تـــتكلّمْ
قلـــت لمّـــا رأيتـــه يتلظّـــى: ... ربّنـــا اصـــرف عنّـــا عـــذاب جهـــنّمْ

وقد زار جوبان القوّاس حمّاماً، مخدوعاً بظاهره وما عليه من نقوش وتصاوير، فما أن دخله حتّى أخذت الروائح الكريهة تتصاعد منه، واكتنف الظلام حجراته، وأخذ يسير فيه متلمّساً طريقه كالأعمى:[٦٨]

جئـــت أريـــد الحمّـــام يومـــاً ... فغرّنـــي الـــنّقش والحصـــيرُ
حتّـــى إذا جـــزت نِلـــت ريحـــاً ... كأنّمـــا تنـــبش القبـــورُ
أَنقـــلُ خـــوف الوقـــوع رجلـــي ... فيهـــا كمـــا ينقـــل الضـــريرُ
وكلّمـــا جـــاء لهـــا زبـــون ... قلنـــا: ألـــم يـــأتِكم نـــذيرُ ؟!

ويحصي الأسعرديّ مجموعة من العيوب والمساوئ الّتي عاينها في أحد الحمّامات التي دخلها، وهي عيوب تصور عدم اهتمام القائمين على الحمام بنظافته والعناية به، وذلك إذ يقول: [٦٩]

رأيـــت لحمـــامكم ســـتّة ... يظـــلّ لهـــا كـــلّ طلـــق عبوســـا
هـــواء تجمّـــد منـــه الـــرّؤوس ... ومـــاء يـــذيب الكلـــى والنفوســـا
وســـقف يـــدرّ كفـــيض الغمـــام ... وأرض تمـــانِع عنهـــا الجلوســـا
وطـــين تغرغـــر منـــه الحلـــوق ... "وعشـــواء تمـــنح"[٧٠] روحـــاً خسيســـا

ثانياً: النقد الاجتماعيّ

لم يقف الشّعراء الشاميّون زمن الحروب الصليبيّة عند حدود الهجاء الشخصي، وإنّما تعدوه إلى نقد بعض مظاهر الفساد الاجتماعيّ، والتنديد بها، وتصوير معاناة النّاس منها، ودعوة أولي الأمر إلى إزالتها والقضاء عليها. وهم في ذلك كلّه كانوا يتمثّلون مشاعر العامّة، ويصدرون عنها. وقد تعدّدت مجالات النقد الاجتماعيّ آنذاك، فشملت الحكم والإدارة، والقضاء، وظاهرة الكسب غير المشروع، والفقهاء، والمتصوّفة، وسدنة المساجد، وغير ذلك.

وقد كثر الشّعر الّذي انتقد أجهزة الحكم والإدارة، وكان هذا النقد يوجه إلى الحكّام مباشرة، بحيث يبيّن الشّعراء فيه مواضع الخلل والفساد، ويوجهون الأنظار إليها دون مواربة. فعندما تفاقم ظلم السامريّ وزير الملك الصالح إسماعيل، أرسل الفقيه شمس الدين المقدسيّ إلى الملك الصالح قصيدة اصطنع فيها أسلوب الوعظ والنّصح، شاكياً إليه فساد حاشيته وسوء صنيعهم، وسمّاهم له واحداً واحداً، آخذاً عليه اعتماده على مثل هؤلاء المفسدين، ولا سيّما على ثعلب وفضيل المنجمين اللذين أكثر الملك الصالح من استشارتهما. يقول:[٧١]

يا مالكاً لم أجد لي من نصيحته ... بدّا، وفيها دمي أخشاه منسفكا
اسمع نصيحته من أوليته نعما ... يخاف كفرانها إن كفّ أو تركا
والله لا امتدّ ملك مدّ مالكه ... على رعيّتِهِ من ظلمِهِ شبَكا
ترى الحسودَ به مستبشِراً فرِحاً ... مستغرباً من بوادي أمره ضحكا
وزيره ابن غزال والرّفيع له ... قاضي القضاةِ ووالي حَربه ابن بكا
وثعلبٌ وفضيلٌ من هما، وهما ... أهل المشورة فيما ضاق أو ضنكا
جماعة بهم الآفات قد نُشِرت ... والشّرع قد مات والإسلام قد هلكا
ما راقبوا الله في سرّ وفي علن ... وإنّما يرقبون النّجمَ والفلكا

إن كـان خيـراً ورزقـاً واسـعاً فلهـم أو كـان شـرّاً وأمـراً سـيّئاً فلكـا

وكتب سيف الدين السّامريّ إلى طوغان حاكم البيرة، وأسندمر حاكم طرابلس أبياتاً استنكر فيها خضوعهما لأستادارهما العلم سنجر ونائب البرّ الشجاع همّام، مصوّراً سيطرة هذين الرّجلين على شؤون الحكم، واهتمامهما بشؤونهما الخاصّة، واستخفافهما بالرّعيّة، واستحلالهما دماءها وأموالها. يقول:(٧٢)

اسـم الولايـةِ للأميـر ومـا لـه فيهـا سـوى الأوزار والآثـامِ
وجبايـة القتلـى وكـلّ مصـيبة تجبـى منافعهـا إلـى همّـامِ
سـيفان قـد وليـا وكـلّ منهمـا ماضـي العـزائم دائـمِ الإقـدامِ
وببـابِ كـلّ منهمـا علـم ينكّـ ـل مـا يجـود بـه مـن الإنعـامِ
مـا النّـاس عنـدهما بنـاس لا ولا يَريـان هـذا النـاس كالأنعـامِ
وقـد استحلا مـنهم مـا لـم يـزل مـن مَـالهم ودمـائهم بحـرامِ
فمتـى أرى الـدنيا بغيـر سـناجر والقطـعَ والتنكـيسَ للأعـلامِ

واستهجن شعراء آخرون سياسة بعض الحكام الّتي تخالف المعهود في سياسة الدولة الإسلاميّة، فعندَما استوزر الملكُ الأمجد بهرام شاه مهذّبَ الدين السامريّ، قال فتيان الشّاغوريّ أبياتاً استغرب فيها أن يقوى نفوذ اليهود في دولة الملك الأمجد، وأنكر عليه استيزاره للسامريّ الّذي أكثر من استخدام أقاربه من السّمرة، فـ "كثر منهم العسف وأكل الأموال والفساد"(٧٣)، ودعاه إلى الفتك بهم، والقضاء عليهم:(٧٤)

الملـك الأمجـد الـذي شـهدت لـه ملـوك الزّمـانِ بالفضـلِ
أصـبح فـي السـامريّ معتقـداً مـا اعتقـد السـامريّ فـي العجـلِ
والسّـامريّون كالبرامـك مـن قبـل، فـأين الرّشـيد للقَتـلِ؟!

ونزع بعض الشعراء في تعريضهم بالحكّام إلى تشويه صورة المهجو ونعته بكل قبيح منفّر، من ذلك قول محمد بن سوار بن إسرائيل يصف أحد المتولّين الجائرين، جاعلاً إيّاه شؤماً على الرعيّة، ومصوّراً المفارقة الأخلاقيّة في سلوكه، وانعكاس الأحوال في عهده:(٧٥)

يـا فاضـح الـدين والـدنيا بسـيرته ... وقـامع العـدلِ والإحسـان والجـودِ
قد ضاق ظاهر ما في الأرض منك فما ... بباطن الأرض ميت غير محسودِ
خفّض عليك فإن الناس قد أيسوا ... من خضرة العيش في أيّامِك السودِ

وإمعانا في الانتقاص من قدر الحكّام، استعمل الشعراء صور الحيوانات والحشرات وقارنوا المهجوّين بها، كما في قول البديع الدمشقيّ يشبّه أحد الحكّام بالبهيمة(٧٦):

حـاكمكم بهيمـة ... ليسـت تسـاوي العلفـا
ولـيس فيـه مضـغةٌ ... طيّبـة إلاّ القفـا

ويعرّض العلم الشاتاني بالوزير صالح بن العجميّ ويصفه بأنه "تيس" ويستطرد إلى ذكر العماد الأصفهاني(٧٧):

وزارة التـيس أبـي فاسـد ... قـد عـمّ أهـل الأرض منهـا الفسـادْ
عانـدَ علمـي جهلـه مثلمـا ... هـدّ قـوى الفضـلِ بقصـدِ العمـادْ

وتعرّض بعض الشعراء في نقدهم للحكّام إلى أخلاقهم وسلوكهم، فقد هجا ابن دنينير ابنَ يعلى وزير الملك الظاهر بحلب في عدّة مناسبات، من ذلك قوله يصفه باللؤم والجهل وضعف العزيمة والحمق وسوء الأخلاق(٧٨):

مـا إن سـمعتُ ولا رأيـتُ ولـن أرى لؤمـاً يماثـل لـؤمَ عبـد البـاقي
هـو جاهـل واهـي العزيمـة أحمـق صـعب العريكـةِ ضـيّق الأخـلاقِ
فلـو أنّ رجليـه بخفّـة رأسـهِ لغـدا يفـوت نـواظرَ الأحـداقِ

وينتهز ابن دنينير مناسبة حجّ المعتمد والي دمشق لينعته بالرّياء، ويتّهمه بأنّه حجّ خوفاً من الملك المعظم عيسى لا خشية من اللّه. يقول:(٧٩)

حججـتَ يـا شـرّ خلـق اللـهِ كلّهـم لمّـا تعرّيـت مـن مـال ومـن جـاهِ
وكـان حجّـك يـا مـن لا خـلاق لـه خـوف المعظـمّ لا خوفـاً مـن اللـهِ

وقد أفحش عضرس الحلبيّ في هجاء أحد رؤساء حلب، فرماه في شرفه ورجولته، وذلك إذ يقول(٨٠):

شـكت ابـنَ صـقر عرسـه وتظلّمـت عـدم الجمـاع وقلّـة الإنفـاقِ
فأجابهـا بتـدلّل وتخضّـع والـدمع منحـدر مـن الآمـاقِ
بـي مثـل مـا بـك يـا حمامـة فاسـألي مـن حـلّ قيـدك أن يحـلّ وثـاقي

وكتب ابن الساعاتيّ إلى بعض الأكابر، وقد ولي ولاية، أبياتاً عنّفه فيها على تكبّره على النّاس، مبيناً له أنّ هذه الولاية لن تدوم وأنها "كأحلام نائم". يقول(٨١):

تتيـه علينـا أن وليـت ولايـة رويـداً فمـا شـيء لـديها بـدائمِ
ومـا المـال ذا نفـع وإن كـان سـالماً إذا كـان عـرض المـرء لـيس بسـالمِ
فمـا هـي إلاّ مثـل طيـف مسـلّم ومـا عِزّهـا إلاّ كـأحلام نـائمِ

وقد صاغ شعراء آخرون نقدهم للحكّام بأسلوب هزليّ تتبدّى فيه روح السخرية بقوّة، ولعلّ أشهر أولئك الشاعر ابن عنين الّذي ثابر على هجاء الحكّام في عصره، وآثر ألاّ يأوي إليهم، ولا يكفّ عن ذمّهم، حتى اقتحم بأهاجيه غضبهم، وإحن صدورهم. ومن يقرأ هذا الهجاء يشعر أنه يعبّر عن تجربة إنسانية عميقة فيها قدر طاغ من حدّة الإحساس وقوّة الشعور. فها هو ذا ينتقد الجهاز الإداريّ لمدينة دمشق، فيذمّ بدر الدين مودوداً شحنة المدينة، ويضمّ إليه طائفة كبيرة ممّن يعملون معه، ويتّهمهم في أمانتهم وكفايتهم، ويرميهم في أخلاقهم وسلوكهم[٨٢]:

ما عِندَ مودود مَن قَلّتْ مثالبهُ ... إلاّ المبارِز إبراهيم نائبهُ
ومن سِواه فكلبٌ لا خلاقَ له ... قد أعجزتني فما تحصى معايبهُ
المستشار عفيف الدّين قد دميت ... يدي على لومهِ ممّا أعاتبهُ
وابن النفايةِ والتّيس الشريف وجعـ ... ـس الكلب مشرفه والعِلق كاتبهُ
والأقلف الكلب رأس الأمر صاحب ديـ ... ـوان الأمير وجابيه وحاسبهُ
والأحمق الجاهل الكرديّ يسأل في ... حبس العقيبةِ عن علق يداعبهُ

ويهجو ابن عنين أمير البيرة بدرَ الدّين حسناً، فيتهكّم به، ويصوّره تصويراً مضحكاً، وذلك إذ يقول[٨٣]:

لنا أمير قرنُه ... ينطح في الأفقِ الفلكْ
عطاؤه وطعنه ... ما غير دقٍّ بالحنكْ
فهم الذّنابى أبدا ... في أيّما جيش سلكْ
كأنّه في قلعةِ البيـ ... ـرةِ صيّادُ السّمكْ

وعندما نُفي ابن عنين من دمشق، استنكر ذلك، وهتف في وجه مقدّمي الدولة قائلاً[٨٤]:

لـو كنـت أسـودَ مِثـل الفيـل هامتـه عَبـل الـذّراعين فـي غرمولـه كِبَـرُ
كانـت حـوائج مثلـي عنـدكم قضـيت لكنّنـي أبـيض فـي أيـدِهِ قِصـرُ

وبعد أن أذن لـه الملك العادل بالعودة إلى دمشق، عاد إليها قويّ النّفس، وهو ينشد(٨٥):

هجـوت الأكـابر فـي جلّـق ورعـت الوضـيع بهجـو الرّفيـعِ
وأخرجـت منهـا ولكننـي رجعـت علـى رغـم أنـفِ الجميـعِ

وتناول الشعراء في سياق نقدهم لأجهزة الحكم والإدارة ظاهرة الكسب غير المشروع واختلاس أموال الدولة والثراء على حساب الشّعب. فقد استهل ابن منير الطرابلسيّ قصيدته الّتي قالها في هجاء القاضي الأعزّ أبي الفتح محمدّ بن عبدالله التميمي، قاضي صور، بأبيات صوّر نفسه فيها يقف عند بائع خبز يستدين منه، وبينما هو كذلك، يمرّ موكب القاضي، فيتشبّث ابن منير به، فيأخذه القاضي معه إلى بيته، ثمّ يأخذ ابن منير في وصف هذا البيت وما فيه من بذخ ونعيم، وكأنّه يوجه الأنظار إلى هذا القاضي وأمثاله ممّن أثروا على حساب الشعب، وغرقوا في النعيم، بينما لا تجد العامّة (رغيف الخبز) إلاّ دَيْناً(٨٦):

كنـتُ يومـاً فـي بـاب جيـرون أتلـو آيـة الـدَّينِ عنـد بيّـاعِ خبـزِ
فـإذا وقـع بغلـة وغـلام يَقـرَع النّـاس بـينَ دفـع ولهـزِ
وعليهـا فتـى ضـئيل المحيّـا مكثـر مـن ملوّنـات وطـرزِ
قلـت: مـن ذا؟ فقيـل: قـاضٍ جليـل لقّبـوه فـي بيتـهِ بـالأعزّ
وهـو يـأوي إلـى ذكـاء وفضـل قلـت: يـا نفـس قـد ظفِـرت بكنـزِ
فتـدانيت ثـمّ سـلّمت فاستفـ ـرس حتّـى استبانَ جمعـي وفـرزي

******

فـــدخلنا الـــدهليزَ فابتـــدر الإذْ ... نَ فأُغرقـــت فـــي دمقـــسٍ وخـــزِّ
بـــين دســـت وســـلّة ودواة ... ورقيـــق مـــن تســـتريّ وقـــزِّ
ودعـا بالطعـام فـاخترت مـن حلـ ... ـوٍ ومـن حـامض المـذاق ومـزِّ

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو من وصف ما رآه في بيت هذا القاضي من مظاهر البذخ والترف. وحين يأسى فتيان الشاغوري لموجات الغلاء التي توالت على بلاد الشّام، يلتفت إلى أولئك الذين احتجنوا الأموال، وسكبوها في دورهم، بينما تعاني الرعيّة من الجوع والضّنك. يقول[٨٧]:

هـم أطلقـوا طَـرْف الغـلاء فجاءنـا ... عـن طِـرْف رخـص بـالغلاةِ مقيّـدِ
مـا بـين جـدب نحـن فيـه ورخصـهم ... إلاّ كغلـــوة سَـــهم رامٍ جيّـــدِ

وقال أبو شامة المقدسيّ قصيدة طويلة صوّر فيها فسادَ القائمين على أموال الوقف في دمشق لعصره، ووجد عليهم موجدة شديدة، لأنّهم كانوا يتصرّفون في هذه الأموال على غير هدى، وينفقونها حسب أهوائهم ورغباتهم، ويحرمون منها مستحقّيها من طلبة العلم، وممّا قاله فيها[٨٨]:

اتّخـذ حِرفـة تعـيش بهـا يـا ... طالـب العلـم، إنّ للعلـمِ ذكـرا
لا تُهنـه بالاتّكـالِ علـى الوقـ ... ـفِ، فيمضـي الزمـان ذلاًّ وعسـرا
إنمـا تحصـل الوقـوف لشرّيـ ... ـر مـن العلـومِ مبـرّا
أو لمـن يلـزم الأكـابر لا يبـ ... ـرَح فـي خدمـة ومـدح وإطـرا
والضـعيف المشـغول بـالعلم يلقـى ... مـن ولاةِ الوقـوفِ هَجـرا وهُجـرا

وعمل سيف الدّين السامريّ أرجوزة سمّاها السامريّة، أوّلها[٨٩]:

يـــا ســـائق العـــيس إلـــى الشـــآم وقـــــاطع الوهـــــادِ والآكـــــامِ

"حطّ فيها على الكتّاب، وأغرى النّاصر بمصادرتهم"، إلا أنّ هذه الأرجوزة لم تصل إلينا.

بيد أنّ ابن عنين كان أكثر الشعراء جرأة في الحديث عن بعض العمّال والمستخدمين الّذين أطلقوا أيديهم في أموال الرعيّة ولا سيّما في دولة الملك المعظّم عيسى، فعندما أمر هذا الملك بأن تسلسل أبواب الجامع الأمويّ بدمشق، التمس ابن عنين تعليلاً لذلك، ليطعن به في أمانة سدنة المسجد الّذين نهبوا أمواله. يقول[٩٠]:

لمّـــا رأى الجـــامع أموالـــه مأكولـــة مـــا بـــين نوّابـــهِ
جُـــنّ فمِـــن خـــوف عليـــه غـــدا مسلســـلا مـــن كـــلِّ أبوابـــهِ

ولمّا أمر الملك المعظّم عيسى بنزح ماء خندق القلعة بدمشق، ونال الناسَ من ذلك جهد عظيم، انتهز ابن عنين ذلك ليلمز أحد القضاة ويطعن في أمانته، فاقترح على الملك المعظم أن يضع هذا القاضي يديه في الماء فينزحه، ولا يبقي منه شيئاً[٩١]:

أرِح مـــن نـــزح مـــاءِ البـــرجِ يومـــاً فقـــد أفضـــى إلـــى تعـــب وعـــيّ
مـــرِ القاضـــي بوضـــعِ يديـــه فيـــه وقـــد أضـــحى كـــرأسِ الـــدّولعيّ

ويقترب ابن عنين من الرّوحِ الشعبيّةِ اقتراباً شديداً في ألفاظه وأساليبه، حين يهجو صاحب خزانة الملك المعظم عيسى، ويجرّده من كلّ فضيلة، ولا سيّما من الأمانة على أموال الخزانة[٩٢]:

يـا مليـكَ الـدنيا الّـذي أعظـم اللـ ـــه بتأييـــد عـــزّه ســـلطانَهْ
أنـــا أشـــكو إليـــك جـــور رقيـــع لقّبـــوه الصّـــفعان تـــاجَ الخزانـــهْ
عـــدم العقـــل والمـــروءة والإحســ ـــانَ والـــدين والحيـــا والأمانـــهْ
وحـــوى اللـــؤم والرّقاعـــة والخسّـ ـــة والجهـــل والخنـــا والخيانـــهْ
زعمـــوا أنّـــه حفـــيظ علـــى المـــا لِ أمـــين؛ قلـــت: اســـكتي يـــا فلانـــهْ

وكان كثير من القضاة في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة عرضة لهجاء الشعراء ونقدهم، مع أنّ عدداً منهم كان مشهوداً له بالعدل والنزاهة، فقد انتقد ابن دنينير القاضي حجة الدين الشهرزوريّ، وشهّر به، ونعته بالجهل والظلم والفسق والفجور، وذلك في قوله[٩٣]:

قـــاض غـــدا فـــي الويـــلِ والثبـــورِ
مِـــن قـــبح مـــا يـــأتي مـــن الأمـــورِ
فـــي بخلـــه ولؤمـــهِ المشـــهورِ
والظلـــم والجـــور وقـــولِ الـــزّورِ
وجهلـــه المركّـــب الموفـــورِ
معتـــرف بالفســـقِ والفجـــورِ

وتـذكر المصـادر أنّ القاضـي شـرف الـدين بـن الزكـيّ كـان "نزهاً....عفيفاً"[٩٤]، إلاّ أنّه لم يسلم من لسان ابن عنين الّذي كتب إلى الملك المعظم عيسى أبياتاً يتّهم فيها هذا القاضي بالميل إلى النّساء، ويدعوه إلى اتخاذ الإجراءات بحقّه[٩٥]:

أقولهـــا لـــو بلغـــت مـــا عســـى فالطبـــل لا يضـــرب تحـــت الكســـى
قاضـــيك إن لـــم تقصـــه فاخصـــه أوْلا فـــلا يحكـــم بـــين النّســـا

وعندما لا يجد ابن عنين ما يطعن به في نزاهة القاضي ابن أبي عصرون يستحيل نقده له ضرباً من العَبَثْ، كما يقول هو نفسه[٩٦]:

وما هجوت ابنَ عصرون أروم به فضلا، ولا نلت من فخر ومن شرفِ
لكنْ أجرّب فيه خاطري عبثاً كما تجرّب بيض الهندِ في الجيفِ

وقد توالى على منصب قاضي القضاة في دمشق في النّصف الثاني من القرن السّابع الهجريّ عدد من القضاة الّذين لم يتحرّوا العدل في أحكامهم، ومن هؤلاء أحمد بن هبة الله الملقّب بالصدر بن سنيّ الدولة، الّذي "كان مراعياً لأرباب الجاهات كثيراً"[٩٧]، فاستشهد النجيب بن الشقيشقة "لأجل جاه كان النجيب متّصلاً به، وميّزه بأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جامع دمشق، فعجب الناس منه، وأنكروا ما فعله"[٩٨]، لأن النجيب "كان مشهوراً بالكذب ورقّة الدّين وغير ذلك"[٩٩]. وقد قال أحد الشعراء الشاميين ثلاثة أبيات أنكر فيها بشدّة على القاضي صدر الدين أن يولّي رجلاً موصوفاً بانحلال العقيدة والجهل بأحكام الشّرع عقد الأنكحة للمسلمين والأبيات هي[١٠٠]:

جلس الشقيشقة الشقّي ليشهدا بأبيكما ماذا عدا ممّا بدا ؟!
هل زلزِل الزلزال أم قد أخرج الد جّال أم عدِمَ الرّجال ذوو الهدى ؟!
عجباً لمحلول العقيدةِ جاهل بالشّرع قد أذنوا له أن يعقِدا

وعندما عدّل القاضي الصّدرُ بن سنّي الدولة جمالَ الدين بن اليزديّ، وخلع عليه خلعةً بطيلسان، وأحضره مجلسه مع العدول، وأشهد عليه، قال الشاعر سيف الدين السامريّ قصيدة زفّ فيها إلى الناس، بأسلوب تهكميّ، نبأ تعديل ابن اليزديّ وجلوسه للنظر في أمورهم، عادّاً ذلك فرصة سانحة للمجاهرة بالمعاصي

والانغماس في اللهو والمجون، لأنّ ابن اليزديّ نفسه يفعل ذلك. يقول[١٠١]:

طـاب شـرب المـدامِ فـي رمضـان ... واصـطفاق العيـدان عنـد الأذانِ
والزّنـا واللـواط فـي حـرم اللـ ... ـهِ وتـرك الصـلاةِ بـالقرآنِ
منـذ صـار اليـزديّ فـي سـكك الشـا ... مِ يطـوف الحانـاتِ بالطيلسـانِ
وإذا صـارت العدالـة فـي الفسّـا ... قِ واللائطـين بـالمردانِ
فجـدير بـأن أكـون نبيّـاً ... ويكـون الصـدّيق لـي التلمسـاني
يـا عـدول الشـآم قـد سـمح القـا ... ضـي لأصـحابه بنيـل الأمـاني
قـامروا واشـربوا وقـودوا ولوطـوا ... وافسـقوا والحـدوا إذن بأمـانِ
وارفعـوا عـنكم التسـتّر بالفسـ ... ـقِ فـلا حاجـةٌ إلـى كتمـانِ

وقد كانت هذه الطريقة في النقد بالغة التأثير، فعندما بلغت الأبيات القاضي صدر الدين "عزّ عليه، وأعرض عن اليزديّ، ومنعه من الشهادة"[١٠٢].

وذكر أبو شامة المقدسيّ في كتابه (الذيل على الرّوضتين) أنّه تولّى القضاء في زمانه ثلاثة مشهورون بالفسق والظلم، هم النّجم بن الصدر سنيّ الدولة، وكان "حاكماً جائراً فاجراً ظالماً متعدّياً[١٠٣]، وابن الجمال المصريّ الّذي "لم تكن طريقته مستقيمة"[١٠٤]، والرّفيع الجيليّ الّذي "فعل بالنّاس الأفاعيل"[١٠٥]. وقد قال أبو شامة ثلاثة أبيات حصر فيها هؤلاء القضاة ونوّابهم، مصوّراً فظاظتهم، واستشراء فسادهم، وابتلاء النّاس بهم[١٠٦]:

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت ... من القضاة بجهّال وأوقاحِ
بأعجمين ومصريّ وصائغهم ... والأربليّ وخيّاط وفلاّحِ
هم ضعف ستّة والنّواب كلّهم ... ضعفان، أحزانهم أضعاف أفراحِ

ولمّا كثر تعدّي النجم بن الصدر سنيّ الدولة عزل، وأرسل إلى مصر. وقد

صوّر أبو شامة المقدسيّ ردود الفعل الشعبيّة بعد أن سمع الناس بعزل القاضي ومغادرته دمشق، فقال: "ثمّ سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة... والدّعاء عليه كثير، والتظلّم منه شائع، والدعاوى عليه كثيرة"[١٠٧]. وقد قال العماد داوود بن الحمويّ في ذلك قصيدة تمثّل فيها مشاعر الدمشقيين الغاضبة إزاء هذا القاضي المخلوع الّذي فتق الشّرع، واحتال على الخلق، وبدّد الأموال، مصوّراً شماتة النّاس به، وكراهيتهم له، وتفنّنهم في ذمه، وممّا ورد فيها[١٠٨]:

نجم أتاه ضياء الشمسِ فاحترقا ... وراحَ في لججِ الإدبارِ قد غَرِقا
ناحَت عليه الليالي وهي شامتةٌ ... وعرّفته صروف الدّهر ما اختلقا
وحدّثته الأماني وهي كاذبة ... بأنّه لا يَرى بَعد النّعيم شَقا
وجادَ بالمالِ كي تبقى رئاسته ... وفتّق الشّرع والتّقوى وما رتقا

******

وألقيت في قلوب الناسِ بغضته ... لكنّهم قد غَدوا في ذمّهِ فِرَقا
ففرقَة بقبيح الظّلم تَذكره ... وفرقة حلفت باللّه قد فَسقا
وفرقة سلبته ثوب عصمتِه ... بأنّه من رباطِ الدّين قد مَرَقا

وزاد أبو شامة من قوله:

وفرقة وَصَفته بالخلاعة مَع ... خبثٍ وكبر وكلّ منهم صَدَقا

وفي سنة ٦٦٣هـ اجتمع على ولاية القضاء بدمشق، وفي زمن واحد، أربعة قضاة، وجعل كلّ واحد منهم قاضي القضاة لأحد المذاهب الأربعة، وقد استهجن أبو شامة المقدسيّ ذلك قائلاً: "وهذا شيء ما أظنّه جرى في زمان سابق"[١٠٩].

وكان لقب ثلاثة من القضاة شمس الدين، فاتخذ الشعراء من ذلك مناسبة للتندّر والسخرية، كما في قول أحد الظرفاء[١١٠]:

أهـــل دمشـــق اســـترابوا مـــن كثـــرة الحكـــامِ
وهـــم جميـــع شـــموس وحـــالهم فـــي ظـــلامِ

وقول آخر:

أظلـــم الشـــام وقـــد ولـــي الحكـــمَ شـــموس
لـــيس فـــيهم مـــن يبـــتّ الحكـــ ـــم علمـــا أو يســـوس

وقد اتّسعت دائرة النقد الاجتماعيّ في الشّعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة، فشملت الفقهاء والمتصوفة والوعّاظ وأئمة المساجد. فقد استرعى انتباه ابن عنين ما كان يدور في ردهات المسجد الأمويّ بدمشق من جدل بين بعض الفقهاء، وما صاحب ذلك من انفعالات وارتفاع أصوات، فصوّر ذلك تصويراً ساخراً، وذلك إذ يقول[١١١]:

البغـل والجـاموس فـي جـدليهما قـد أصـبحا عجبـاً لكـلّ منـاظرِ
بـرزا عشـيّة يومنـا لتجـادل هـذا بقرنيـه وذا بالحـافِرِ
مـا أتقنـا غيـر الصـياح كأنّمـا لقنـا جـدال المرتضـى بـن عسـاكرِ
لفـظ طويـل تحـت معنـى قاصـر كالعقـل فـي عبـداللطيف النـاظِر
اثنـان مـا لهمـا وحقّـك ثالـث إلاّ رقاعـة مدلويـهِ الشّـاعرِ

وقد سخر شهاب الدين بن غانم، وهو متصوّف، من الفقهاء الّذين يعتكفون في المساجد في رمضان، فيشبّههم بالشياطين الّتي تغلّ في ذلك الشهر[١١٢]:

مـا اعتكـاف الفقيـه أخـذاً بـأجر ... بـل لحكـم قضـى بـه رمضـانُ
هـو شـهر تغـلّ فيـه الشياطـ ... ـين، ولا شـكّ أنّـه شـيطانُ

أمـا الشّـاعر حوبـان القـوّاس فقـد سـخر مـن حـالات الوجـد التـي يـزعم المتصوّفة أنّهم يمرّون بها، فقال على طريقتهم متهكما بهم[١١٣]:

مـتّ فـي عشـقي، ومعشـوقي أنـا ... ففـؤادي مـن فراقـي فـي عنـا
غبـت عنّـي فمتـى أجمعنـي ... أنـا مـن وجـدي منّـي فـي فنـا
أيّهـا السـامع تـدري مـا الّـذي ... قلـت واللـهِ ولا أدري أنـا

وكان في ظاهر دمشق خان قد جمع أنواع أسباب الملاذّ، ويجري فيه من الفسق والفجور ما لا يحدّ ولا يوصف، فهدمه الملك الأشرف، وعمره جامعاً، وسمّاه الناس "جامع التّوبة". وقد ولّى الأشرف الجمالَ السبتيّ إمامة الجامع، وكان يلعب في صباه "بشيء من الملاهي، وهي الّتي تسمّى الجغانة"، فلّما توفي تولى موضعه العماد الواسطيّ "وكان يتّهم باستعمال الشراب[١١٤]، وكان صاحب دمشق آنذاك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فكتب إليه ابن الزويتينة الشاعر أبياتاً، على لسان المسجد، يذّم فيها أخلاق الإمام، ويشرح له ما أصابه من ضرّ، حاثّاً، بأسلوب ساخر، على ردّه إلى حالته الأولى[١١٥]:

يـا مليكـاً أوضـح الحـ ... ـقّ لـدينا وأبانـهْ
جـامع التوبـةِ قـد قلّدنـ ... ـي منـك أمانـهْ
قـال: قُـلْ للملـك الصـا ... لـحِ أعلـى اللـه شـانه
يـا عمـاد الـدين يـا مَـن ... حمـد النـاس زمانَـه
كـم إلـى كـم أنـا فـي ضـ ... ـرّ وبـؤس وإهانـهْ

لـــــي خطيـــــبٌ واســـــطيّ يعشـــــق الخمـــــر ديانـــــهْ
والّـــذي قـــد كـــان مـــن قبـــ ـــــل يغنّـــــي بجغانـــــهْ
فكمـــــا نحـــــن فمـــــا زلنـــــ ـــــا، ومـــــا نبـــــرح حانـــــهْ
ردّنـــــــــي للـــــــــنّمطِ الأوّ ل، واســـــــــتبق ضـــــــــمانهْ

الدراسة الفنيّة

اتّخذ كثير من شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية شكل مقطوعات قصيرة تعبّر عن فكرة واحدة بإحكام، بحيث يشعر القارئ عند الانتهاء منها بالاكتفاء. وهذه المقطوعات ليست أجزاء من قصائد ضاع أكثرها، أو اختيارات من قصائد طويلة، وإنما هي مقطوعات في صورتها الأصليّة الّتي قالها الشّعراء.

وتتخذ هذه المقطوعات صورتين رئيستين، الأولى أن تكون المقطوعة في بيتين لا يمكن الفصل بينهما، ويعبّران عن معنى تامّ لا يقبل التطوير، كما في قول ابن المسجّف العسقلاني يسجل بعض الظواهر الّتي أنكرها النّاس في عصره في دمشق(١١٦):

ثلاثـــة أشـــياء ثقلـــن بجلّـــق ... علـــى كـــلّ قلـــب بالـــدليل المحقّـــقِ
تزهّد قاضينا الخـويّيّ وطرحـة الشّهـ ... ـــابِ وإســـلام الحكـــيم الموفّـــقِ

والصّورة الثانية أن تكون المقطوعة في ثلاثة أبيات أو أكثر تتطوّر حتّى تبلغ نهاية مرسومة لا تتجاوزها لتمام المعنى بها، كما في الأبيات التالية الّتي كتبها شهاب الدين بن غانم إلى جمال الدين يشكو له رجلاً يدعى السيف بن المغيزل(١١٧):

مـــولايَ قاضـــي القضـــاة يـــا مَـــنْ ... لـــه علـــى العبـــدِ ألـــف مِنّـــهْ
إليـــك أشـــكو قـــرينَ ســـوءٍ ... بُليـــت مِنـــه بـــألف محنـــهْ
شـــهرته بيننـــا اعتـــداء ... أغمـــده فالســـيفُ ســـيفُ فِتنَـــهْ

وقد لا يأتي السّياق مكتملاً في المقطوعة، وإنّما يترك الشّاعر للقارئ

إتمامه، كما في قول ابن السّاعاتي في هجاء ابن سناء الملك[١١٨]:

أتَعبثُ بي غائباً يا سعيد ... أما لو حضرت لأدّبت جنّك
ولست أقول هجاء يشين ... يكفيك علمك يا مجد أنّك....

وقول ابن المهنا في الأبيات التالية الّتي أنفذها إلى قاضي حلب يشكو فيها نائبه وكاتبه[١١٩]:

لا عجب أن خرب الشام أو ... أقوت مغانيه ولا غَرْو
قد أصبح المجد به حاكماً ... وأصبح المنشي له صَنْو
مَولاي، محيي الدين، غيّرهما ... عنّا، فتحوى شكرنا أوْ ....

وقد تكتفي المقطوعة بالإيماء إلى المعنى دون ذكره، فتترك في نفس القارئ أثراً مسترسلاً، كما في قول ابن عنين يخاطب الملك المعظم عيسى وقد أرهق النّاس بنزح ماء خندق القلعة بدمشق[١٢٠]:

أرِح من نزحِ ماء البئر يوما ... فقد أفضى إلى تعب وعيِّ
مُرِ القاضي بوضع يديه فيه ... وقد أضحى كرأسِ الدّولعيّ

وتمتاز المقطوعات الهجائية بالإيجاز والتكثيف ممّا يمنحها حدّة لاذعة، كما في قول سيف الدين السامريّ يهجو أهل دمشق[١٢١]:

قَبّح اللّه كلّ من بدمشق ... من أصيحابنا سوى ابن سعيدِ
فهو على شحّهِ وما يتعاطا ... هـ من اللؤمِ أصلح الموجودِ

وتستَعين بعض المقطوعاتِ بالسخرية القائمةِ على مفاجأة القارئ بمعنى

ظريف أو صورة طريفة، كما في قول ابن عنين يتهكّم بشرف الدّين يعقوب الّذي كان يُسمع الحديث بجامع دمشق[١٢٢]:

رأيت النبيّ عليه السّلام ... فقمت إليه وقبّلتهُ
فقال: أيعقوب يروي الحديث، فقلت: نعم، قال: ما قلتهُ

وقد تتّخذ المقطوعة شكل دعابة يحرص الشاعر على إنهائها بطريقة فكاهيّة ترسم على شفتي القارئ إذا ما انتهى من قراءتها، ابتسامة خفيفة، كما في قول شهاب الدين التلّعفريّ في صديق له يدعى سليمان، وقد رمته بغلته وداسته[١٢٣]:

سمعت لابن سليمان وبغلتهِ ... أضحوكة، خلتها إحدى قصائدهِ
قالوا: رمته وداست بالنّعال على ... قفاه، قلت: هذا من عوائدهِ
لأنّها فعلت في حقّ والدها ... ما كان يفعله في حقّ والدهِ

وتبدو بعض المفاكهات نكتة بسيطة ساذجة، ولكنّها هادفة، كما في قول ابن المسجف في رجل يلقّب بدر الدين، ويستطرد إلى نفسه[١٢٤]:

قالوا: تلقّب بدر الدّين مفتخرا ... نجل الجنوبيّ من قد زيّن الأمنا
فقلت: لا تعجبوا منه، فذا لقب ... وقف على كلّ نحس، والدليل أنا

ولابن عنين مقطوعات كثيرة تشتمل على الفكاهة الحلوة، والنكتة البارعة، وقد أدرك الأقدمون ذلك، فأشاروا إلى أنّ ابن عنين كان يقصد من بعض هجائه "الدّعابة والإحماض، لا الغيبة وثلب الأعراض"[١٢٥]، كما في الأبيات التّالية الّتي أضفت عليها التورية لوناً هزلياً خفيفاً، وقد قالها في الشريف الكحّال الّذي أحب غلاماً ينبز بـ "الجمل"[١٢٦]:

فَـدَيتك قـل للشّـريف الشّـهابِ وإن شـاط غيظـاً فـلا تحتفـلْ
تـوالي الحنابلـة القـائلين بـأنّ يزيـداً إمـام عـدلْ
وتـزعم أنّـك مـن عتـره الوصـ ـيّ، وأنـتَ تحـبُّ الجمـلْ!!

وقد تكون المقطوعة لدى ابن عنين في صورة حكاية بسيطة تتّسم بالحركة الصّاعدة الّتي تصل إلى نهاية محدّدة تقف عندها، ويتّم المعنى بها، كما في الأبيات الآتية التي قالها في بدر الدين مودود شحنة دمشق(١٢٧):

جـاء الشـتاء ولـيس عنـدي جبّـة فطفقـت أطلـب دار بـدر الـدّينِ
فتصـفّحت لمّـا قراهـا حبّـة فبـدا يواصـل زفـرة بـأنينِ
وشـكا نيـاط فـؤادهِ وحـرارة فـي قلبـه تُربـي علـى سـجّينِ
وغـدت فرائصـه تهـزّ كأنّهـا سـعف عَرتـه الـرّيح فـي تشـرينِ
يَنسـى فيسـكن مـا بـه وتعـوده الذكـ ـرى، فيصـرَع صـرعة المجنـونِ
فشـكرت ربّـي لـو قراهـا جُبّـة لقتلتـه عمـداً بـلا سـكّينِ
وخرجـت أمشـي القهقـرى متسـتّراً بقـرون حاجبـهِ الزكـيّ ابـن القينـي

أمّا الهجاء الّذي كان في قصائد طويلة فهو قليل في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة، ومن أمثلة ذلك قصيدة لأبي شامة قالها في هجاء القائمين على أموال الوقف في دمشق، وقد مرّت بنا بعض أبياتها، وقصيدة لابن دنينير قالها في هجاء القاضي حجة الدين بن الشهرزوريّ، وقد استشهد ببعض أبياتها في الحديث عن هجاء القضاة، وقصيدة ابن عنين الّتي وسمها بـ "مقراض الأعراض"، وهجا بها عدداً من وجوه دمشق. غير أنّ ابن منير قد فاق هؤلاء في قدرته على إطالة قصائده الهجائيّة، ولعلّ هذا يرتبط بموهبة الشّاعر، بالإضافة إلى الهدف الذي كان يرمي إليه من هذا الهجاء المطوّل. من ذلك قصيدته الّتي قالها في هجاء القاضي

الأعزّ، ومطلعها[١٢٨]:

يـــا وزيـــرَ الشـــآمِ دعـــوة مظلـــو ... مٍ رجـا مـن عُـلاك كَشْـف الظُلامـهْ

وقد طال نفس الشاعر في هذه القصيدة، إذ بلغ عدد أبياتها مئة وأربعة وعشرين بيتاً. ولعلّ ميل الشّاعر إلى الأسلوب الوصفيّ هو الذي أتاح له هذا التطويل، كما أتاح له أن يحافظ على وحدة القصيدة ويدفع عنها التشتّت، فالقصيدة على طولها، فيها قدر كبير من الحيويّة المستمدة من تدرّج الشّاعر في الأفكار والمعاني، والبراعة في التصوير وإيثار اللغة البسيطة الواضحة. فبعد أن استهلّ ابن منير القصيدة بأبيات تظلّم فيها إلى وزير الشام آنذاك من القاضي الأعزّ، يأخذ في وصف عمّة القاضي الّتي كانت مزيّنة ببعض الرّسوم. بيد أن ابن منير لم يقف عند حدود ما كان مرسوماً فعلاً، وإنّما راح يستدعي أصنافاً شتّى من هذه الصور، ويخيّل للقارئ أنّها مرسومة على العمّة. وقد استغرق ذلك حوالي ستّين بيتاً من القصيدة، تفنّن فيها ابن منير تفنّناً يدلّ على براعته في استغلال ثقافته المتنوعة في تشكيل معاني شعره وصوره. أجتزئ من ذلك قوله:

عِمّة تملأ الفضاءَ على وجهٍ ضئيلٍ ... كعُشـــــرِ عشـــــرِ القلامَـــــهْ
لـو تخـذنا البَحـر المحـيط مـداداً ... وَجعَلنـــا بيـــت الـــدّنا أقلامَـــهْ
لـم تمثّـل معشـارَ مـا صَـوّرت بيـ ... ـــن شـــوابيرها يـــد الرقّامـــهْ
مـــن وحـــوشٍ رواتـــع وظبـــاء ... رُتّـــعٍ بـــين أثلـــة وثمامـــهْ
وصـنوف العشّـاقِ مـن عـاهر تشكـ ... ـــو هواهـــا وقحبـــة مســـتهامهْ
مثـل قـيس عشـيق لبنـى وعبّـا ... س وفـوز والقـسّ مـع سـلاّمهْ
وملـوك الـبلاد فـي الشـرقِ والغَـر ... بِ ونجـــد ومكـــة وتهامـــهْ
والنبيّـون كـلّ مـن أظهـر الحـ ... ـــقّ وأورى بصـــدقهِ أعلامـــهْ
فعليهـا أبـو الخلائـق قـد عُـوّ ... ض دار الـــدنيا بـــدار المقامـــهْ

وعليهـــا قابيـــل يـــدفن هابيـــ ـــل وقـــد بـــاءَ بعـــده بالندامـــهْ
وعليهـــا نـــوح وقـــد صـــنع الفلـــ ـــك وأبـــدى فـــي بَنْيهـــا إحكامـــهْ
وعليهـــا موســـى ينـــاجي مـــن الطّـــو رِ إلـــه السّـــماءِ يبغـــي كلامَـــهْ
وعليهـــا يعقـــوب يشـــكو إلـــى اللـــهِ بنيـــــهِ وبثّـــــه وغرامَـــــهْ

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو، فيذكر إبراهيم الخليل وهو يكسّر الأصنام، وشعيباً وقد أقعده المرض، ويوسف وقد جدّ في الهرب من امرأة العزيز... إلى غير ذلك من الصور المستوحاة من القصص القرآني والتّاريخ الإسلاميّ وغير الإسلاميّ... ومع أنّ هذا التكثّر من الصور كان يصدر عن رغبة في السخرية من القاضي الأعز، فإنه كذلك يدل على رغبة ابن منير في استعراض ثقافته المتنوعة.

وبعد أن انتهى الشاعر من تصوير القاضي الأعزّ في هيئة لا تصلح أن تكون لقاض، يخلص إلى تصوير استخفاف الناس بهذا القاضي، وتملّقهم إياه بالمدح الكاذب، لعلّهم ينالون الحظوة عنده:

مكّـــنَ اللّـــه درّتـــي مـــن أعـــالي سَـــفَل يـــدّعون فيـــه الإمامـــهْ
كـــــلّ فَســـــل إذا رآه تـــــردّى خاضـــعاً راكعـــاً ذلـــيلاً أمامـــهْ
قـــائلاً يـــا عـــذير حـــاتمِ الطـــا ئـــيّ فيمـــا يـــولي وكعـــب بـــن مامِـــهْ
يـــا ملـــيح الشـــبابِ يـــا أنضـــرَ النّـــا س، ويـــا أحســـن البريّـــةِ قامـــهْ
كـــلّ هـــذا نَصْـــبٌ علـــى الخـــربِ البيـــ ـــتِ، ليفنـــوا خلقانَـــه وطعامـــهْ
وهـــو إذ ذاك لا يريـــد ســـوىَ تيـــ ـــهٍ علـــيهم وســـطوة وعرامـــهْ
يصـــطفي بعضـــهم ويبعـــد بعضـــا ليُـــــرى ذا إهانـــــة وكرامـــــهْ

وإذا كان ابن منير قد تناول في الأبيات السّابقة صوراً من العلاقات

الظاهرة بين القاضي الأعزّ ومن يأتي إلى مجلسه، فإنّه تحدّث في الأبيات التالية عن طائفة من العلاقات الشاذّة الخفيّة بين هذا القاضي وبعض حاشيته، بَلَه علاقتهم بأخته، مقذعاً في الهجاء، مستعملاً عبارات وصوراً فاحشة، يجلّ المقام عن ذكرها، وقد تدرّج الشاعر في هذا الهجاء تدرّجاً يشعر بالوصول إلى نهاية القصيدة، فمازج بينه وبين ذمّ الدهر الذي قدّم أمثال هؤلاء، وأخّره على فضله، شاكياً من الحاجة وفقدان الصديق، محذّراً القاضي وأتباعه بأنّ الأيّام دول:

يا شباعَ البطونِ لا بدّ من جو ... ع يليك البطين منكم لجامهْ
لا تغرّنّكم مهادنة الدّهـ ... ـر فما زال مُسْهراً من أنامهْ
كلّ شيء إذا تناهى إلى حَـ ... ـدٍّ تمامٍ فالنقص يتلو تمامهْ

وهكذا كانت قصيدة ابن منير الطرابلسيّ، كغيرها من القصائد الهجائيّة، تجمع بين الطول ووحدة الموضوع، فالقصيدة ذات موضوع واحد هو الهجاء، وهدف واحد هو السخرية من القاضي الأعزّ وبيان بطلان أحكامه، ويسري فيها شعور واحد هو النّقمة على هذا القاضي وأمثاله، لذا أنهى الشاعر قصيدته كما بدأها، ولم تخالف نهايتها بقيّة أجزائها، فاطّرد فيها النّسق، وتوالى المعنى، ليحقّق الغاية المرسومة لها.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن لغة الهجاء وأساليبه، فإنه يلاحظ أنّ الشّعراء، حتّى يكفلوا لأهاجيهم سرعة التأثير والذّيوع بين النّاس، نظموها في لغة سهلة بسيطة واضحة، تقترب من اللغة المحكيّة اقتراباً شديداً، من ذلك قول ابن الساعاتي يهجو رجلاً يدعى صالحاً، مستعملاً الصيغ النثرية في بناء بيتيه[١٢٩]:

أسائلتي عن صالح إنّ صالحاً ... وإن نال حظاً من عُلىً وتقدّمِ
له إفك مدّاحٍ، وأبنة كاتب ... وكديةٌ صوفيّ، وعقل معلّمِ

ويقترب العرقلة الكلبيّ في أهاجيه من اللغة المحكيّة اقتراباً شديداً، حتّى لتخلو – أحياناً– من الفنّ، كما في قوله يهجو وحيشاً الأسديّ[١٣٠]:

لا بـــارك اللّـــه فـــي وحـــيشٍ فإنّـــــه مكـــــدّر للعـــــيشِ
كـــم قـــال، لا قلقِـــل غيـــر نابـــهِ أبيـــات شـــعر كبيـــوتِ الخـــيشِ

وتكثر الألفاظ العاميّة في هجاء ابن عنين، مثل "العواني، والعلق، ودقّ حنك، وما قصّر (بمعنى أصاب وأحسن)، والصفعان، والتجعمس"[١٣١]. كما استعمل بعض التعابير التي تستعملها العامّة في دمشق مثل "اسكتي يا فلانه" في قوله[١٣٢]:

زعمـــوا أنّـــه حفـــيظٌ علـــى المـــا لِ أمينٌ، قلت: "اسكتي يا فلانه.."

ولا تكاد تخرج عبارة "يا ابن الدجاجة" عن الشتائم الّتي تتردّد على ألسنة العامّة، وذلك في قوله[١٣٣]:

يا ابن الدّجاجةِ كلّ النّاسِ كان لها ديكاً، فأنت ابن مَن حتّى أناديكا ؟!

ويردّد ابن المسجّف العسقلانيّ في هجائه بعض الشتائم البذيئة الّتي تلقيها العامة في عصره، كما في الشطر الثاني من البيت الأخير[١٣٤]:

قالوا: علامَ رفضت الشّعر مطّرحا فقلت: من قلّة الإنصاف في زمني
لا المدح يورثني مالاً أُسرّ به ولا الهجاء إلى سؤلي يقرّبني
حتى يقال أديب شاعر فطن جِرِ أمّ كلّ أديب شاعر فطنِ

وكما في عبارة "لا يساوون نعلاً" في قوله يهجو جماعة في دمشق[١٣٥]:

خمس تيجان لا يساوون نعلاً ... رثّ في قيمة ولا مقدارِ
الشحيرير والأعيور والقصّا ... ر وابن المصريّ وابن الحوارِ

ولا يخفى على القارئ الخطأ الذي وقع فيه الشاعر، إذ ذكّر العدد مع المعدود المذكّر في البيت الأوّل.

ومع أنّ لغة الهجاء تميل بوجه عامّ إلى البساطة والوضوح، والاستكثار من التعابير الشعبيّة، فإنّ بعض الشعراء استغلوا معارفهم وثقافاتهم في التعبير عن معانيهم، وتصوير مهجوّيهم. فقد استوحى الشعراء بعض آيات القرآن الكريم، ووجّهوها على نحو يخدم مقاصدهم الهجائيّة، كما في قول كمال الدين بن الأعمى يذمّ أحد الحمّامات، ويتذمّر من القائم عليه[١٣٦]:

كلّما قلت: قد أطلت عذابي ... قال لي: اخسأ فيه ولا تتكلّمْ
قلت لمّا رأيته يتلظّى ... ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم

ويفيد ابن عنين من القصص القرآنيّ حين ينتقد الأوضاع في مدينة دمشق لمّا فتحها الملك الكامل محمّد بعد الملك المعظم عيسى، وأعطاها الملك الأشرف موسى، وذلك إذ يقول[١٣٧]:

وكنّا نرجي بعد عيسى محمّدا ... لينقذنا من لاعج الضرّ والبلوى
فأوقعنا في تيه موسى فكلّنا ... حيارى، ولا منّ لدينا ولا سلوى

ويتصرّف شهاب الدين بن غانم بالحديث النبويّ الشريف الّذي يتحدّث عن فضائل شهر رمضان حين يهجو أحد المتصوّفة في قوله[١٣٨]:

ما اعتكاف الفقيه أخْذاً بأجرِ ... بل لحكم قضى به رمضانُ

هـــو شـــهر تغـــلّ فيـــه الشـــيا طـــينُ، ولا شـــكّ أنّـــه شـــيطان

وضمّن الشعراء أهاجيهم بعض الأبيات الّتي قالها شعراء سابقون، كما في أبيات العرقلة الكلبيّ التي هجا بها أبا الحكم الأندلسيّ، حيث ضمّن مقطوعته بيتاً للمتنبي، ووضعه في موضعه المناسب من المقطوعة، وقد سبق أن استُشهد بها في الحديث عن التهاجي بين الشعراء.

ويستعير ابن عنين بيتين لجميل بن معمر العذريّ، ويجعلهما على لسان المهجوّ كمال الدين الشهرزوريّ إمعاناً في السخرية منه، وذلك في قوله[١٣٩]:

دخلـت علـى ابـن الشـهرزوريّ ليلـة وقـد أغلقـت دون الـوزير المغـالق
فعاينتـــه ولهـــان يَرطـــل فَيشـــة وينشـــدها والخـــدّ بالـــدمع غـــارق
"ومـاذا عسـى الواشـون أن يتحـدّثوا سـوى أن يقولـوا إنّنـي لـك عاشـق
نعـم صـدق الواشـون أنـت حبيبـة إلـيّ، وإن لـم تصـف منـك خلائـق"

ويتّكـئ ابـن منيـر الطرابلسـي علـى ثقافتـه بالعربيّـة: نحـواً وصـرفاً وإمـلاء وعروضـاً حـين يهجـو القاضـي الأعـزّ فـي قصـيدته الزائيّـة، وممّـا ورد فيهـا قولـه يتحاور مع هذا القاضي، ويفحش في ذمّه وثلبه[١٤٠]:

صـاح، يـا نصـفَ سـيبويهِ لقـد أحـ ـرزت علـمَ الإعـراب فـي غيـر حَـرزِ
أنـــا خفـــض، وأنـــت رفـــع، وذا (....) نصـب، فَلِـمْ تخفّـفُ همـزي
قـد صـحبت النّحـاة قبلـك واسـتو عبـت مـا كـان مـن معمّـى ولغـز
وأراهـم قـد أدخلـوا ألـف الوصـل علـــي (...) وأنـــت كالمشـــمئز
قلـت: هـذاك للضّـرورةِ، فاستَضحـ ـــك تيهـــاً، وقـــال كالمســـتهزي
فاحســبنها ضـــرورة واتْبَـــع القـــو م، فقـد بـانَ فيـك معنـى التنـزّي

وقد استعمل الشّعراء الشاميّون التصوير البيانيّ وغير البيانيّ في التعبير عن معانيهم وأفكارهم، وتهدف هذه الصورة بصورة عامّة إلى التشويه، لذلك كثرت الصور المنفّرة والقبيحة، كما في قول نصر الهيتي يهجو قوماً لم يجزلوا له العطاء، ويصف رقاعهم الّتي تضمّنت مرسوم ذلك، مستعيراً لها طائفة من الصّور الّتي ينفر منها الذوق السويّ[١٤١]:

رقاعهم تملأ الدنيا بما رحبت ... مَلأً من المين والبهتان والزّورِ
تطوى وتنشَر والأدناس تشملها ... في كفّ كلّ سخين العين معرورِ
كأنّها، وعطاياهم مسطّرة ... فيها، لفائف ميت غير منشورِ
أو ما يقلّعه البيطار من خِرق ... عن كلّ أعجف غثّ اللحم معقورِ
فما لها مشبه في كلّ مخزية ... إلاّ مناديل ربّاتِ المواخيرِ
لا تطّرحها إذا جاءت فإنّ لها ... نفعاً، ولكن لترقيع الطنابيرِ

وواضح أنّ الصور في الأبيات السابقة صور جزئيّة تحقق الازدراء بالمهجوّ، وقد استرفد الشاعر هذه الصور من مصادر تحقّق له هذا الهدف، فصور رقاع هؤلاء القوم تمتلئ كذباً وبهتاناً وزوراً، وجعلها ملطّخة بالأدناس والأوساخ، وشبّهها بلفائف ميّت، وبالخرق التي يعالج بها البيطار حيواناته المريضة، وبمناديل ربّات المواخير..

وقد تعدّدت المصادر التي استرفد الشعراء صورهم منها، فقد استوحى فتيان الشّاغوريّ القصص القرآنيّ في الأبيات التي انتقد فيها الملك الأمجد بهرام شاه، وأخذ عليه استيزاره مهذّب الدين السّامريّ، وقد سبق الاستشهاد بها. واستوحى ابن عنين قوله تعالى "ولقد زيّنا السّماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين"[١٤٢] في البيتين الآتيين اللّذين هجا بهما الرشيد النابلسيّ[١٤٣]:

شكا شِعْري إليّ وقال تهجو ... بمثلي عرض ذا الكلب اللئيمِ

فقلـــت لـــه: تســـلّ فـــربّ نجـــم هـــوى فـــي إثـــر شـــيطان رجـــيمِ

واستمدّ الشعراء بعض صورهم من أحداث التاريخ الإسلاميّ، فقد التفت العرقلة الكلبيّ، مثلاً إلى الأحداث التي جرت بين عليّ ومعاوية، وذلك حين تبرّم من البوّاب الّذي منعه من الدخول على أقرباء الملك الصالح بن رزيك[١٤٤]:

علـــى بـــابكم يـــا آل رزّيـــك شـــاعر قنـــوع كفـــاه مـــنكم الـــود والبشـــرُ
وقـــد ردّه البـــواب جهـــلاً بوجهـــه "كمـــا ردّهـــا يومـــاً بســـوءتهِ عمـــرو"
وحتّـــى حســـين، وهـــو ســـيّد مـــذهبي زوى وجهـــه عنّـــي كـــأنّني الشِـــمر

واستعار الشعراء بعض صورهم من التّاريخ الأدبيّ، كما في قول ابن الساعاتيّ يصوّر حبّ أحد الأمراء للمدح والثناء، وأسفه على ما يذهب من ماله أو طعامه إذا زاره أحد، فيقرنه – على سبيل التهكّم والسخرية – بعروة بن حزام ومجنون ليلى[١٤٥]:

مظهـــر بالمـــديح وإن كـــانَ مجّـــا نـــاً تبـــاريح عـــروة بـــن حـــزامِ
وهـــو يبكـــي بكـــاء مجنـــون ليلـــى ســـاعة الإذنِ أو غـــداة الطعـــامِ

وانتقاصـاً مـن أقـدار المهجـوّين أكثـر الشـعراء مـن صـور الحيوانـات والحشرات، إذ شبّهوهم بالبهيمة والتيس والكلب والعجل والذّباب.... من ذلك قول ابن الساعاتي يُزري بأحد الحكّام ويفضّل عليه القرد في الهيئة والتكوين[١٤٦]:

لـــو كنـــت فـــي زمـــن تقـــادمَ عهـــده لـــذُكرت فـــي طـــه وفـــي ياســـينِ
وتظـــنّ أنّـــك ذو جمـــال بـــارِعٍ والقـــرد أحســـن مِنـــك فـــي التكـــوينِ

ويشبّه ابن السّاعاتيّ أحد الثقلاء بالعجل في الجهل وقلّة العقل، والذبابة

في التطفّل، والنّمل في نقل الحديث. يقول[١٤٧]:

تَجــاوزْ دنيّــات العُجيــلِ وجهلــه فمـا يَهتـدي عجـل يكـون بـلا عقـلِ
أحــطّ علــى مأكولــه مــن ذبابــة وأنقـل فـيهم للحـديث مـن النّمـلِ

وتكثر الصور المستمدة من الطبيعة في شعر الهجاء، فعندما هجا ابن المسجّف العسقلانيّ جماعة من أصحابه شبّههم بالسّراب في قلّة النّفع، وانعدام الفائدة. يقول[١٤٨]:

هـم فـي الرّخـاء إذا ظفـرت بنعمـة آلٌ، وهـــم عنـــد الشـــدائدِ آلُ

ويقرن ابن منير الطرابلسيّ طباع أهل دمشق بجبالهم في الغلظة والقسوة. يقول[١٤٩]:

وطبـــــــاعهم كجبـــــــالهم جُبلـــت وقـــدّت مـــن حجـــرْ

ويشبّه كمال الدين بن الأعمى صَحن حلاوة أهداه إليه أصحابه بأرض السماوة في اليبس والصلابة. يقول[١٥٠]:

إن فـــي صـــحنك المســمّى حـــلاوه رقّـــة تـــورث القلـــوب قســـاوهْ
كـم حفرنـا قلـم نجـد غيـر أرض الصحـ ـــن يبســـاً كمثـــل أرض الســـماوهْ

واستغلّ الشعراء العيوب الخَلْقيّة لمهجويهم، واستخرجوا منها صوراً طريفة على شاكلة ابن دنينير في القاضي حجة الدين بن الشهرزوريّ[١٥١]:

وكنّـــا عملنـــا للمظفّـــر دعـــوة ليحضـر فيهـا عنـدنا يـوم الاثنـينِ
فجـــاء، ولكنّـــي رأيـــت عجيبـــة أتـــى أنفـــه مـــن قبـــل ذاك بيـــومينِ

وقد تميّز ابن عنين بطريقة في التصوير لم توجد عند غيره من الشعراء، إذ كان يشبّه بعض مهجويه ببعض، ويقارن بينهم مقارنة هزليّة، كما في قوله يهجو الخطيب الدولعيّ، ويعارض بينه وبين أحد المفسّرين[١٥٢]:

طوّلت يا دولعيّ فقصّر ... وأنت في غير ذا مفسّرْ
خطابة كلّها خطوب ... وبعضها للورى منفّر
تظلّ تهذي ولست تدري ... كأنّك المغربيّ المفسّر

والصّورة في شعر الهجاء تتنوّع بين صور جزئيّة تقوم على تطلّب التشابه الظاهريّ بين طرفي الصورة، وصور كليّة ترسم منظراً متكاملاً، أو تستقصي ملامح مشهد محدّد. والصورة الجزئيّة هي الغالبة على هذا الشعر، وقد مرّ بنا كثير منها، وأمّا الصور الكليّة فهي قليلة، وقد توسّل الشعراء إلى رسمها بالحركة والتجسيد، كما في قول ابن خروف يهجو الطبيب الدّخوار، ويجسّد طبّه سيفاً راح يحمله ويهاجم به العباد الّذين أمعنوا في الهرب والتخفّي منه، ولكنّ أبواب النجاة سدّت في وجوههم[١٥٣]:

طبع المهذّب طبّه ... سيفاً وصال على المهجْ
باب السّلامة لا يُرى ... منه ولا باب الفَرَجْ

وقد نجد بعض الشعراء يستعمل التشخيص في رسم صوره، فقد مرّت بنا الأبيات التي رفعها ابن الزويتينة إلى الملك الصالح يشكو فيها فساد القائمين على أحد الجوامع، وقد شخص الشاعر هذا الجامع وصوّره إنساناً يتظلّم ويشكو إلى الملك، ويرجوه أن يدفع الفساد عنه، أو يعيده إلى ما كان عليه. وهذا ابن عنين يصوّر الجامع الأمويّ، وقد سُلسِلَت أبوابه، بإنسان أصابه مسّ، فشدّ بالوثاق[١٥٤]:

لمّـــا رأى الجـــامع أموالـــه مأكولـــة مـــا بـــين نوابـــهِ
جُـــنّ فمـــن خـــوف عليـــه غـــدا مسلســـلاً مـــن كـــلّ أبوابـــهِ

والصورة في شعر الهجاء عامة بسيطة واضحة قريبة المتناول، تقع في حدود مدركات الناسّ وحواسّهم، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة الموضوع، فالهجاء، ولا سيّما إذا كان في شكل مقطوعات، يرمي إلى التأثير المباشر في نفوس المهجوّين، ومن ثمّ فإنّ التفنّن في الصورة قد يحدّ من هذا التأثير، لأنّ الصورة الشعريّة بحاجة إلى قدر من التأمّل لفهم دلالاتها واستيعاب معناها.

خاتمــة

تمّ في الصفحات السابقة دراسة شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، وقد بيّنت هذه الدراسة أن هذا الشعر نما وتكاثر، وأنّ بواعث القول فيه تعدّدت، واتّجاهاته تنوّعت.

وأبرزت الدراسة الدور الذي اضطلع به الشعراء الشاميّون في تطهير المجتمع الشاميّ من مظاهر الفساد الخلقيّ والاجتماعيّ، وذلك بتقبيح هذه المظاهر، وإبرازها في صور تدعو إلى إنكارها والابتعاد عنها.

وأوضحت الدراسة أهميّة شعر الهجاء في دراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، فهو يصوّر التنافس بين الشعراء وبواعثه الشخصيّة والمذهبيّة، ويصف فقر بعض الشعراء وسوء أحوالهم الاقتصادية، ويرسم صوراً طريفة لبعض مظاهر السلوك اليوميّ في المدن الشاميّة، ويكشف عن طائفة من التعدّيات التي كانت تصدر عن بعض الحكام والقضاة وغيرهم من القائمين على شؤون الرعيّة.

وأخيراً، بيّنت الدراسة أنّ جلّ شعر الهجاء كان في مقطوعات قصيرة، وأنّ هذا الشعر آثر اللغة السهلة القريبة، والصورة الواضحة الدانية.

الحواشي:

(١) مسالك الأبصار، (ميكروفلم) ١٥: ٣٠٥، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٢٠٥.

(٢) عقود الجمان (ميكروفلم) ٣: ١٨٩.

(٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم العراق) ٣/١: ١٣٦.

(٤) عقود الجمان (ميكروفلم) ٦: ١٩٩، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٣٥٧.

(٥) المصدر السابق ٦: ٥٣٦.

(٦) المصدر السابق ٧: ٤٤.

(٧) المصدر السابق ٧: ٢٤٣.

(٨) المصدر السابق ٣: ٦٧.

(٩) فوات الوفيات ١: ١٣٤.

(١٠) المصدر السابق ٢: ٢٨٢.

(١١) ثمّة شريط مصور (ميكروفلم) في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية يحتوي على بعض أشعار ابن منير، وهو صورة عن مخطوط رقم ٢١٠ بمكتبة أمبروزيانا.

(١٢) الكواكب الدريّة: ١٧٠.

(١٣) انظر: الوافي بالوفيات ١: ٤٢٧–٤٢٨، الذيل على الروضتين: ١٨١.

(١٤) فوات الوفيات ٢: ١٩٤.

(١٥) انظر الذيل على الروضتين: ١٤٨، ٢١١، فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.

(١٦) الخريدة، قسم الشام ١: ٧٦، ٧٩.

(١٧) المصدر السابق ١: ٧٦.

(١٨) شعر ابن القيسراني: ٩٠.

(١٩) الحَشريّة: هم الذين يباشرون مال من يموت، وليس له ولد. صبح الأعشى ٣: ٤٦٠.

(٢٠) جمهرة الإسلام (ميكروفلم) ١: ٨٢.

(٢١) شعر ابن منير (ميكروفلم): ١٥٠.

(٢٢) ديوان ابن منير: ١٣٧.

(٢٣) الخريدة قسم العراق ٣/١: ١٣٦.

(٢٤) عيون الأنباء: ١٦٥.

(٢٥) المصدر السابق: ٦١٥

(٢٦) المصدر السابق: ٦١٦.

(٢٧) المصدر السابق: ٦١٤.

(٢٨) المصدر السابق: ٦٢٥.

(٢٩) عيون التواريخ ١٢: ٤٨٢.

(٣٠) عقود الجمان (ميكروفلم) ١: ٣٨٣.

(٣١) ديوان ابن عنين: ١٨٨.

(٣٢) انظر فصولاً من هذه الرسالة في معجم الأدباء ٥: ٢٢١٨.

(٣٣) فوات الوفيات ٣: ١٩٤.

(٣٤) الوافي بالوفيات ٢٢: ١٩٦.

(٣٥) ديوان العرقلة: ٩٤.

(٣٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٣.

(٣٧) المصدر السابق ٢: ٢٨٤.

(٣٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٥٤.

(٣٩) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(٤٠) بغية الطلب ٧: ٢٠٥.

(٤١) ديوان العرقلة: ٦٣.

(٤٢) انظر الخريدة قسم الشام ٢: ١٨٥.

(٤٣) عيون الأنباء: ٧١٧.

(٤٤) فوات الوفيات ٢: ٣١٨.

(٤٥) عيون الأنباء: ٦٥١.

(٤٦) المصدر السابق: ٦٥٢.

(٤٧) ديوان ابن عنين: ١٧٩.

(٤٨) عيون الأنباء: ٦٥٣.

(٤٩) ديوان ابن عنين: ١٩٤.

(٥٠) الوافي بالوفيات ٩: ٤٠.

(٥١) ديوان ابن عنين: ١٣٣.

(٥٢) فوات الوفيات ١: ١٣٥.

(٥٣) الخريدة، قسم الشام ٢: ٣٨٧.

(٥٤) عيون التواريخ ١٢: ٣٣٦.

(٥٥) المصدر السابق ١٢: ٣٣٦.

(٥٦) ديوان ابن عنين: ٢٣٩.

(٥٧) ديوان العرقلة: ٣٥.

(٥٨) فوات الوفيات ٢: ٢٨٥.

(٥٩) انظر حديثاً عن مدح المدن في كتاب: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ: ٢٨٨.

(٦٠) ديوان ابن منير: ١٦٧.

(٦١) ديوان ابن عنين: ٢٣٠.

(٦٢) الخريدة، قسم العراق ٣/١: ١٢٤.

(٦٣) ديوان ابن دنينير: ٦٠٦، وللاستزادة انظر: ٥٩، ١٩٨، ٦٥٦.

(٦٤) ديوان ابن الساعاتي ٢: ٧٠.

(٦٥) معجم الأدباء ٤: ١٧٠٣.

(٦٦) فوات الوفيات ٣: ٨٧.

(٦٧) المصدر السابق ٣: ٩١.

(٦٨) المصدر السابق ١: ٣٠٧.

(٦٩) بغية الطلب ٩: ٤٢٤٣.

(٧٠) ورد ما بين علامتي التنصيص في بغية الطلب هكذا "وعشو يمنح" فلا يستقيم به الوزن والمعنى، والتصحيح من كتاب: شذرات من كتب مفقودة: ٣٩٩.

(٧١) فوات الوفيات ٣: ٣٥٨.

(٧٢) المصدر السابق ١: ١٣٩.

(٧٣) عيون الأنباء: ٧٢١.

(٧٤) ديوان فتيان: ٣٥٩.

(٧٥) تالي كتاب وفيات الأعيان: ١٤٢.

(٧٦) فوات الوفيات ٢: ١٣٣.

(٧٧) الخريدة، قسم الشام ٢: ٢٧٣.

(٧٨) ديوان ابن دنينير: ٥١٦.

(٧٩) المصدر السابق: ٦٠٩.

(٨٠) عقود الجمان (ميكروفلم) ٣: ٢٣٣.

(٨١) ديوان ابن الساعاتي ١: ١٤١.

(٨٢) ديوان ابن عنين: ٢٠٨.

(٨٣) المصدر السابق: ٢٠٣.

(٨٤) المصدر الساب: ٢٣٦.

(٨٥) المصدر السابق: ٩٤.

(٨٦) ديوان ابن منير: ١٤٦.

(٨٧) ديوان فتيان: ١٣١.

(٨٨) الذيل على الروضتين: ٢٢٢.

(٨٩) فوات الوفيات: ١٣٤.

(٩٠) ديوان ابن عنين: ١٤٣.

(٩١) المصدر السابق: ٢٣٥، وتنسب الأبيات كذلك إلى ابن المسجف العسقلاني: فوات الوفيات ٢: ٢٨٥.

(٩٢) المصدر السابق: ٢٢١.

(٩٣) ديوان ابن دنينير: ٥٧٧.

(٩٤) الذيل على الروضتين: ١١٠.

(٩٥) ديوان ابن عنين: ١٣١.

(٩٦) المصدر السابق: ١٩١.

(٩٧) الذيل على الروضتين: ٢٠١.

(٩٨) المصدر السابق: ٢٠١.

(٩٩) المصدر السابق: ٢٠١.

(١٠٠) المصدر السابق: ٢٠١، ولم يذكر أبو شامة اسم الشاعر.

(١٠١) فوات الوفيات ١: ١٣٨.

(١٠٢) المصدر السابق ١: ١٣٩.

(١٠٣) الذيل على الروضتين: ٢١٤.

(١٠٤) المصدر السابق: ١٤٨.

(١٠٥) فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.

(١٠٦) الذيل على الروضتين: ٢١٤.

(١٠٧) المصدر السابق: ٢١٤.

(١٠٨) المصدر السابق: ٢١٥.

(١٠٩)المصدر السابق: ٢٣٦.

(١١٠) المصدر السابق: ٢٣٦.

(١١١) ديوان ابن عنين: ٢٠٥.

(١١٢) فوات الوفيات ١: ١٢٧.

(١١٣) المصدر السابق ١: ٢٠٣.

(١١٤) وفيات الأعيان ٥: ٣٣٤-٣٣٥.

(١١٥) فوات الوفيات ٢: ٣١٩.

(١١٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(١١٧) المصدر السابق ١: ١٠٣.

(١١٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٣.

(١١٩) الخريدة، قسم الشام ٢: ٩٨.

(١٢٠) ديوان ابن عنين: ٢٣٥.

(١٢١) فوات الوفيات ١: ١٣٦.

(١٢٢) ديوان ابن عنين: ١٣٧.

(١٢٣) فوات الوفيات ١: ١٤٧.

(١٢٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(١٢٥) عقود الجمان (ميكروفلم) ٦: ٢٠٣.

(١٢٦) ديوان ابن عنين: ١٣٥.

(١٢٧) المصدر السابق: ٢٠٣.

(١٢٨) شعر ابن منير (ميكروفلم): ١٧٦.

(١٢٩) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٠.

(١٣٠) ديوان العرقلة: ٥٦.

(١٣١) ديوان ابن عنين (المقدمة): ٢٦.

(١٣٢) المصدر السابق: ٢٢١.

(١٣٣) المصدر السابق: ٢٠١.

(١٣٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٦.

(١٣٥) المصدر السابق ٢:٢٨٦.

(١٣٦) المصدر السابق ٣: ٩١.

(١٣٧) ديوان ابن عنين: ١٣٢.

(١٣٨) فوات الوفيات ١: ١٢٧.

(١٣٩) ديوان ابن عنين: ١٩٧.

(١٤٠) ديوان ابن منير: ١٤٧.

(١٤١) الخريدة قسم الشام ١: ٢٣١.

(١٤٢) الملك، آية: ٥.

(١٤٣) ديوان ابن عنين: ١٨٨.

(١٤٤) ديوان العرقلة: ٤٨.

(١٤٥) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٢.

(١٤٦) المصدر السابق ٢: ٩.

(١٤٧) المصدر السابق ٢: ٧٢.

(١٤٨) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

(١٤٩) ديوان ابن منير: ١٦٧.

(١٥٠) فوات الوفيات ٣: ٩١.

(١٥١) ديوان ابن دنينير: ٥٧٥.

(١٥٢) ديوان ابن عنين: ١٨٨.

(١٥٣) فوات الوفيات ٢: ٣١٨.

(١٥٤) ديوان ابن عنين: ١٥٤.

المصادر مرتّبة هجائياً حسب عنوان الكتاب

أولاً- المصادر المخطوطة:

١- جمهرة الإسلام ذات النّثر والنّظام، مسلم بن محمود الشّيزريّ، ميكروفلم رقم ٩٢٢٣ أدب، معهد إحياء المخطوطات العربيّة، القاهرة.

٢- شعر ابن منير الطرابلسيّ، مخطوط رقم ٢١٠، مكتبة أمبروزيانا، وعنه شريط مصوّر في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

٣- عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، أبو البركات مبارك بن أبي الشّعار الموصلي، ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.

٤- مسالك الأبصار في أخبار ملوك الأمصار، ابن فضل الله العمري، ميكروفلم رقم ٣٦٥، الجامعة الأردنية.

ثانياً- المصادر والمراجع المطبوعة:

٥- الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والمماليك، د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت ودمشق، ١٩٨٩,

٦- تاريخ دمشق، ابن القلانسي: أبو علي حمزة بن أسد، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسّان، دمشق، ١٩٨٣,

٧- تالي كتاب وفيات الأعيان، فضل اللّه بن أبي بكر الصقاعيّ، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤,

٨- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذّيل على الرّوضتين، أبو شامة المقدسيّ، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤,

٩- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، الحافظ ابن عساكر، هذبه عبدالقادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩,
١٠- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهانيّ، (قسم شعراء الشّام) تحقيق د. شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٥,
١١- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، (قسم شعراء العراق) تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، ١٩٦٤,
١٢- ديوان ابن دنينير، إبراهيم بن أحمد (رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة) تحقيق ودراسة محمود شاكر سعيد، جامعة الأزهر، ١٩٨١,
١٣- ديوان ابن السّاعاتي، أبو الحسن علي بن رستم، تحقيق أنيس المقدسيّ، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٨,
١٤- ديوان العرقلة الكلبيّ، حسّان بن نمير، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٠,
١٥- ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ؟
١٦- ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة، دمشق، ١٩٧٦,
١٧- الشعر العربيّ في بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ د. شفيق محمد الرقب، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣,
١٨- شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨,
١٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أبو العباس أحمد بن علي القلقشنديّ، المؤسسة العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣,
٢٠- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، تحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢١- عيون التّواريخ، محمد بن شاكر الكتبيّ، تحقيق د. فيصل السّامر ونبيلة عبدالمنعم، وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٧,

٢٢- فوات الوفيات، محمّد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣,
٢٣- الكواكب الدريّة في السيرة النورية، تقي الدين أبو بكر بن أحمد ماضي شهبة، تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١,
٢٤- معجم البلدان، ياقوت بن عبداللّه الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٧٩,
٢٥- وفيات الأعيان وأنباء الزّمان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.